٧

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثامن بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٦ — ٢٧ محرم سنة ١٣٦٥

صحيفة مهداة الى عاهل الجزيرة العربية بمناسبة زيارته الرسمية لمصر

سلامٌ على الصحراء

سلامٌ على البيد المترامية ، سلامٌ على الفيافي القاحلة ، سلامٌ على البسابس الملس ، سلامٌ على الرمال المجرودة الصمّاء ، سلامٌ على الصحراء .

سلامٌ على مهد الروح ، سلامٌ على مربية المدنيات ، سلامٌ على مقيمة الحضارات ، سلامٌ على موسى كليم الله ، سلامٌ على عيسى روح الله ، سلامٌ على محمد رسول الله ، سلامٌ على من رفعوا الروح فوق المادة وأقاموا صرح المدنية على الحرية والحب والتسمح ، وأذلوا المادة واستخدموها لحاجات النفس .

سلامٌ على من قدّسوا الاخلاق ، سلامٌ على من أدّوا رسالة العقل الاول واجب الوجود ، لهذا الوجود ، سلامٌ على الاشعة النورانية تلابس الاجساد الفانية لتتصل بالملإ الأعلى ، فتضل فيها المادة والماديات ، وتستشرف على القوّة والجبروت ، وتذل كل جبّار عنيد ، ظلّام للعبيد

سلامٌ عليكم في عصر تنابل الذرّات ، وسلامٌ على المهد الذي أخرجكم الى هذا الوجود ، وجعل منكم رسلاً مختارين دون جميع الناس ، سلامٌ على الصحراء ، مهد الروح والروحانية ، ومنبت الحب والسلام والحرية

اسماعيل مظهر

مجمع اللغة العربية

في بعض مصطلحاته الحديثة

أطلعني صديق على قائمة من المصطلحات التي أقرّها مجمعنا اللغوي في علم التشريح ، وقد سجلها مجلس المجمع في الدورة الحادية عشرة (١٩٤٤ — ١٩٤٥) فدرستها بلذة كبيرة وعلقت عليها تعليقات أقدمت على نشرها بعد الاحجام ، لسابق اشتغالي بمثل هذه المصطلحات في المجمع ، فخشيت أول شيء أن يؤوّل نقدي هذه المصطلحات تأويلاً لا ينصرف الى الغرض الذي أرمي اليه ، ولا يطابق نيتي في نقدها . ولكن العلم تعاون واشتراك في الرأي . وإني لآمل أن لا ينصرف الرأي الى غير ما أتوخاه من النظر في هذه المصطلحات .

(١) الشرايين الضّالة : Aberrant arteries

أول ما استوقف نظري في هذه القائمة اصطلاح « الشرايين الضالة » . ولست أعرف هل هذه ترجمة بالحرف أم أخذ من المعنى ؟ أما الترجمة الحرفية لهذا المصطلح فهي الشرايين الزائغة . لأن الصفة aberrant إن أدت في بعض الأحوال معنى « الضال » ، فما أبعد ما تكون عن هذا المعنى في هذا المصطلح . ذلك بأن الشرايين الضالة على حد قول المجمع هي في الواقع غير ضالة بالمعنى اللغوي المفهوم من الفعل « ضلّ » . لأن الضالّ هو الذي لا يستقر في مكان أو الذي لا يثبت على رأي . وقد سميت بعض المذنبات في علم الفلك الاجرام الضالة لأن أفلاكها غريبة ، ولأنها قد تغادر جو الارض فلا تعود اليه ثانية . فهي بهذا المعنى ضالة شديدة الضلال . والضال الهائم على وجهه لا يعلم أين يذهب .

(٢) شذوذ : Abnormalities of :

arteries, lymph vessels, vascular system and veins

قيل في هذه المصطلحات « شذوذ : القلب ، والأوعية اللمفية (باللمم وهي المنفية باللون) والجهاز الوعائي والاوردة » والشذوذ مفرد وكلمة Abnormalities بصيغة الجمع فينبغي أن يكون مقابلها أيضاً بصيغة الجمع أي « شذوذات »

(٣) فوق الصرة : Above umbilicus

تحت الصرة : Below umbilicus

ورد المصطلح الأول في الصفحة الاولى من القائمة ، وورد المصطلح الثاني في الصفحة الرابعة ، وأثبت أمام كليهما لفظ « الصرّة » بالصاد . والصرة شيء مصرور عليه ، كصرة النقود مثلاً . أما السُّرة فهي تلك الحزمة المعروفة في البطن . والافضل أن يقال الصقع الشرسوفي لما هو فوق السرة ، والصقع الخثلي لما هو تحت السرة .

فقد قسم المشرحون البطن مناطق سميت « المناطق البطنية » : abdominal zones وهي ثلاث مناطق في مجال البطن يعينها خطان أفقيان يمر أحدهما بشرسوف الضلع التاسع ويسمى الخط الضلعي ، ويمر ثانيهما بقمتي العظمين الحرقفيين ويسمى الخط الحرقفي . وخطان رأسيان يمران برباط بوبرت من كلا الجانبين ، فيقسم مجال البطن ثلاث مناطق عليا ووسطى وسفلى ، وتسمى المنطقة الاولى : المنطقة الشرسوفية ويطلق عليها في الاصطلاح العلمي واحد من ثلاثة أسماء هي : (1) Subcostal zone (2) Epigastric zone (3) Regio Epigastrica

وتتضمن هذه المنطقة ثلاثة أصقاع هي :

(١) الصُّقعُ المَراقي الايمن : Right Hypochondriac region

(٢) الصقع الشرسوفي : Epigastric region

(٣) الصقع المراقي الايسر : Left hypochondriac region

والصقع الشرسوفي هو المعنيّ باصطلاح : Above umbilicus

والثانية : المنطقة السُّرية ، ويطلق عليها في الاصطلاح العلمي أحد مصطلحين :

(1) Umbilical zone (2) Regio mesogastrica.

وتتضمن ثلاثة أصقاع هي :

(١) الصقع القطني الايمن : Right lumbar region

(٢) الصقع السُّري : Umbilical region

(٣) الصقع القطني الايسر : Left lumbar region

والثالثة : المنطقة الخثلية ، ويطلق عليها في الاصطلاح العلمي أحد مصطلحين :

(1) Hypogastric zone (2) Regio Hypogastrica

ضرورة حتمية لو تمسكت بأهداب النظام الاقطاعي . فطمحت للوحدة لتضم قوة الى قوة وثروة الى ثروة . وزعمت بروسيا حركة الاستقلال ، واستطاعت بعد سلسلة من الحروب انتهت بحرب السبعين استطاعت ان تبني وحدتها على أسس قوية راسخة .

وفرضت الوحدة الجديدة قسطاً آخر من التفكير ، فكان لا بد لها من مؤهلات ومقومات ودعائم . لذلك اتجهت الانظار الى الغرب : الى انكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول التي سمت في مدارج الحضارة ومعارج النور .

فشجع فردريك الأكبر مشاريع النقل والترجمة عن العلوم الفرنسية وأشرف على تأسيس المعاهد والمدارس . ومن هنا بدأ تشجيع الحكومات الالمانية للعلم . ولهذا كان يقوى ويشتد ويتقدم إذا حظي بتأييد الحكومة ، ويضعف وينحل ويبطىء كلما قطعت عنه يد المساعدة والامداد .

وتشوّقت المانيا الى تقليد الفن الآلي الصناعي الذي أتقنته انجلترا بعد جهاد طويل خلال قرنين من الزمان . ولما كانت صفحة الصناعة في المانيا بيضاء ناصعة ، تيسر لها أن تفاضل بين شتى السبل والأساليب ، وتنتقي وتختار منها ما هو أنسب لمصلحتها وخدمة أهدافها . وقد توفقت الى حدٍّ كبير في الاختيار ، ولم يبد الشعب أي مقاومة للنظم التي فرضت عليه لقرب عهده بالحكم الاقطاعي وحداثته في التعرّف الى معنى الحرية وهو العمل تحت ظلالها . وأدارت دفة الصناعة ادارة حكيمة حازمة ، جعلت في مقدور المانيا المتحدة بحكم ما وجدت تحت تصرفها من كنوز مذخورة ، وقوى عاطلة ، أن تنافس الصناعتين الانجليزية والفرنسية وتبزهما رغم عراقتهما في العلم والتقدم .

وظهر العلم أول ما ظهر كمفخرة وطنية رسمية في المانيا . ثم عمدت حكومة قبل المانيا تعد الى العلم كفّاً سخيّاً ، وعوناً موفوراً ، كما وجدنا في المانيا . فالعلم في الأقطار الاخرى عاش وازدهر بجهود أفراد وجدوا لذتهم وسعادتهم في البحث دون أن تفكر الحكومات في تمويل هؤلاء الجنود المجهولين ، أو تطبيق نظرياتهم في خدمة الحكومة والشعب . وكان انشاء «مؤسسة القيصر ولهلم» فجر دور جديد لعصبة العلم ، تقاس به أوضاع المجتمع ، ووضع مدى امكانيات الصناعة ، والحرف بالانسانية عن سبل السلام والتعاون والسعادة .

استوحت هذه المؤسسة برامجها وأغراضها من وحي وبرنامج وزير التربية الالمانية همبولدت (١٧٦٧ — ١٨٣٥) الذي أسس جامعة برلين . ووزع في مشاريعه وبرامجه التربوية بين النور الغربي والتنظيم الالماني . وكان قد مهد فكرة ان منشآت حديثة تعنى بالبحث والكشف وحده يجب أن تؤسس تساعد الاكاديميات والجامعات العلمية .

وحوت هذه المؤسسة أكثر من ثلاثين معهداً مكرساً للبحث . وقد تتبين عبادة الفرد والنزعة الدكتاتورية في أعمال المؤسسة عندما نسمع فون هارناك يقول « ان هذه المؤسسة لاتبني المعهد ثم تبحث عن الرجل الصالح للعمل فيه، ولكنها تعرف العالم النابه فتبني له المعهد»

هكذا مضى هذا النظام الفردي في سيره طويلاً ، فما يشتهر عالم وتعلو بحوثه وتلمع مكتشفاته حتى تقيم له الحكومة مختبراً خاصاً تزوده بكل الاجهزة الفنية، وتحيطه بالعدد الاكبر من المعاونين المختصين . وإذا توفي يخلفه عالم مرموق يستطيع أن يحل محله عن جدارة واستحقاق، أو يغلق المعهد ، أو يعدل ليناسب عالماً آخر اختصاصه قريب من اختصاص العالم المتوفي . وبنيت منازل للعلماء في المؤسسة ، يلجأ اليها القادمون من الداخل أو الخارج ، فيجتمع قادة الرأي العلمي تحت صعيد واحد يتبادلون الرأي ويتناقشون في كل المسائل التي تظهر على مسرح الحوادث والبحث سواء في داخل المانيا أو في الاقطار الاخرى. وانتظم ورود الانباء العلمية الى المؤسسة ، وأصبحت محجة العلماء من كل حدب وصوب .

وما كان يعلن نبأ كشف أو اختراع إلاّ وتدرس كل احتمالات تطبيقه في الصناعة ، وحل مشاكل الاقتصاد الوطني . وتتضافر الجهود على نقل هذه الاحتمالات من حيز القوة الى حيز الفعل .

واستطاعت المؤسسة أن تفتح آفاقاً واسعة للبحث ، وتتيح فرصة البحث للمتخرجين والاساتذة الذين ضاقت بهم الجامعات . ولم تترك التطبيق العلمي تحت رحمة القدر والحظ والثروة الفردية . فاشترك في تمويلها قبل الحرب الكبرى وبعدها أصحاب البنوك وأرباب الصناعة والتجار والحكومة . ومثل هذه المعاضدة المادية للعلم لم تعرف قبل في غير المانيا . لان الصناعات في الاقطار الاخرى كانت تعرض عن تشجيع العلم ، إلاّ عند توقعها الربح الوفير منه ، أو عندما تكرهها ظروف التنافس التجاري والتزاحم الاقتصادي على ادخال العلم وتطبيقه . ومن هذه الشركات ما كان يشتري الاختراع ويحتكر تطبيقه ، ثم يقتله في مهده لئلا تفيد به الصناعات المنافسة .

لم يعان البحث الالماني هذين الضعف والتكبيل ، لانه حكومي قبل أن يكون ملكاً شخصياً يتصرف به الفرد كما يشاء ولان البحث جهد قومي مشترك يقصد أن يحقق للامة بأسرها منافعها ومصالحها .

وامتاز العلم الالماني بظاهرة جديدة لم يسبق اليها ، فقد أكد الاندماج والتعاون بين العلماء في الجامعات ومديري المصانع . فالفريق وحدة تؤدي عملها إلى التفاهم الكامل والتكافل الحر . [illegible] أن العالم [illegible] يتناول جزاء ما قدمت يداه ، ومدير العمل

وأصحاب الصناعة يكدّسون الأرباح . وبينما كان مدير العمل في انجلترا رجلاً لا يفقه مسائل العلم ولا يعني بتطوراته ولا يتحدث بلغة العالم ، كان العالم في المانيا هو مدير العمل كما حدث مع ليبج وفون والشاخ وسيمنز .

وكان مدير المصنع يذهب بنفسه الى الجامعات ويشرح للعلماء هناك تطورات الصناعة والمشاكل التي تجابهها ويلفت الأنظار اليها . كما إن العالم في الجامعة كان يذهب بالحلول المقترحة الى المصانع ويشرف على تطبيقها . ويوحي الى الخبراء بالسبل التي يستغلون بها اكتشافاته الجديدة . وهكذا كان صاحب رأس المال ورجل الادارة والخبير الفني يتساندون ويتساوون في المرتبة دون أن تطغى شخصية على أخرى وتستأثر بالربح والمغنم .

فتقدمت الصناعات الكيميائية والصناعات الفولاذية الثقيلة تقدماً سريعاً حتى احتكرت السوق العالمي وصدّرت الى انجلترا نفسها نسبة عالية من منتوجاتها .

وأنتج فيض الانتاج حاجة المصانع الى الأسواق التجارية . وفتح الاسواق يفضي الى استعمال القوة والاستعمار في ما وراء البحار . ولما كانت الدول الأخرى قد سبقت المانيا إلى احتكار هذه الاسواق ، ولما كانت أحلام السيطرة والقوة التي غرستها الفلسفات القديمة في العقول تشبع وتقنع الأمة بوجاهة مطالبها ، وضرورة تأمين مجالها الحيوي ، كان لا بد من شن الحرب وابتداء الاستعداد للحرب العالمية الأولى .

قال هرنك منذ سنة ١٩١٠ « ان الدفاع المسلح والعلم ، كنانان قويان يدعمان عظمة المانيا لذا يجب ألا تنقطع العناية بهما أو تفتر .. »

فعندما زحفت الجيوش الألمانية كانت قد ألقت ظهرها الى حصن حصين ، ومعين لا ينضب من القوة العلمية الفعالة ، وضربت هنا وهناك بأسلحة قوية فتاكة ، وكسبت بسرعة المبادرة في الهجوم ، وأحرزت انتصارات حاسمة كانت ستفتح العالم في وجه الاستعمار الألماني وتلقي خيرات الأرض على أبواب القيصرية ، لولا أن الحلفاء أدركوا سر النجاح . وقلدوا الانتاج العلمي الألماني واستطاعوا بما توفر لديهم من المواد الخام ، والقوة العاملة ، والأموال الطائلة ، أن يتقدموا ويداهموا بنفس السلاح . ومع ذلك وجد الخبراء من إحصاء خسائر الفريقين المتحاربين أن الالمان خسروا رجلا واحداً مقابل رجلين من الحلفاء ، وخسروا طائرة واحدة مقابل ست طائرات من اسطول الحلفاء الجوي ، واستطاع العلم أن ينقذ المانيا من هزيمة عاجلة ، فابتكر برجيس طريقة لتحويل الزيوت المتنوعة وقوداً صالحاً لاستعمال الآلة الحربية . وابتكر هابر طريقة كهربائية رخيصة لربط آزوت الهواء بالايدروجين ، ومنه الآزوتات الضرورية لصناعة المتفجرات . وعند ذكره هابر أحتفظ عنه الالمان كما كانوا يلقبونه .

تتناوب في النفس خواطر الاحترام والاكبار مرة، وخواطر الازدراء والاحتقار مرات. كان هذا العالم اليهودي جديراً بلقبه، لانه كان يدير دفة العلم ويوجه العلماء بسلطته المعنوية ونفاذ رأيه. آمن «هابر» بمستقبل المانيا المشرق، وتأكد من انتصار الجيوش في المعارك المقبلة، وتشبع بروح المخاطرة والتفاني والتفاني في خدمة الحرب حتى نسي رسالة العلم الانسانية، وأهمل الاستجابة لحوافز النفس النبيلة. فابتكر الغازات السامة القاتلة وقضت غارة الغاز الاولى على (٦٠٠٠) قتيل في جبهة لا يزيد طولها على ستة أميال.

يستحق «هابر» الاحترام لان تحضير النشادر يقدم للتربة الجديبة حاجتها من الازوتات أو الاسمدة التي تزيد الغلة الزراعية، وتبعد شبح المجاعات المروعة عن ذهن الانسان. ولكنه يستحق كل الازدراء لاختتامه جهاده العلمي بتحضير الغازات، وملء أنسام الهواء برياح الموت القاتلة. وتشاء الحوادث والقدر الساخر أن يثبت بطلان حدس «هابر» وتخميناته، فانكسرت المانيا وفرضت عليها العقوبات والغرامات وأذلت الروح الالمانية اذلالاً كان رد فعله الحرب العالمية الثانية. وبانكسار المانيا، أذلت كبرياء «هابر» وعزة نفسه، وأضحى هدفاً صريحاً للاتهامات وضروب التحقير والتشهير. ومالنا نستطرد برواية قصة هذا العالم اليهودي الالماني والحقيقة ان قصته تشبه قصة التاريخ الالماني كله.

استمر «هابر» في تشجيعه للعلم وسعيه لحمايته في المانيا، وأخذ على عاتقه جمع الاعانات والمنح المالية ليتيسر للعلم أن يثبت على أقدامه ويبدأ نضاله من جديد. فرحل الى أمريكا وخطب في المهاجرين الالمان، وأشعل فيهم من حماسته وثورته نيران الحماس والعاطفة.

ولما ارتقى النازي دست الحكم، صب نقمته على الجنس السامي ممثلاً في اليهود. واحتقرهم وصادر أموالهم وأعدم زعماءهم وطارد علماءهم. وكان «هابر» بين المنبوذين المبعدين. ومن سخرية القدر أنه اضطر الى الالتجاء الى البلاد التي عاداها بكل ما وسعت نفسه من حقد وانتقام، وأراق ماء وجهه وخرق حرمة العلم ليقهرها ويذلها. قبلته بريطانيا وعاش فيها. ووقع مرة أن أعلن رأيه في النظام النازي بحرية وصراحة استفزتا الجستابو، فطلب اليه أن يشرح تصرفه. ولما كان مريضاً بقلبه صدمه الطلب صدمة عنيفة، وقضى نحبه بعد فترة وجيزة اثر نوبة قلبية منفجرة. تشبه حياة «هابر» تاريخ المانيا. فكلاهما ابتدأ بنظام وحيوية وازدهار وانتهى بانهيار واذلال واحتقار.

وفي مرة واحدة لم يحتضن العلم الالماني بعد أن وقف على أقدامه وسار تبعاً للاوامر الحكومية ومناهج الاستعداد الحربي. وانهمر به هذا الطور في عهد جمهورية وايمر، فاذا كانت هذه الجمهورية ستذكر في التاريخ فانما تذكر بنجاح العلم النازي الذي يبعث من الحقيقة

المطلقة مجالاً دقيقاً للتفكير في ظلالها . فظهرت نظريات النسبية والكم ، وأصبحت المختبرات الالمانية حج [illegible] العلم . واتضح للالمان بعد تحطيم نظامهم الاقتصادي تلف ممتلكاتهم وسحق اعتقاداتهم المرونة [illegible] كانت في أذهانهم أحلاماً كباراً ، وباتت أشباحاً وأوهاماً . فقبض الزمن على أعناقهم بيد من حديد بعد أن كان يخيل اليهم أنهم أسياد الارض، وأسياد الزمن وصلحت هذه الفرص لأن يهدم مفكروهم الاحرار تلك المبادىء القبلية المتطرفة، المتعالية ويبنوا على أنقاضها مبادىء ديمقراطية انسانية نبيلة . ولكن الضائقة الاقتصادية اجتاحت اوربا والعالم كله . فضاعت هذه الفرصة لأنه لم يكن في وسع المانيا البلد الذليل الفقير أن يتحمل اعباء الانهيار الاقتصادي الشامل. وأفضى الاحراج الطاغي الى الاخراج الفوضوي ، على يد الشباب المتحمس الذي ميزته عصبة هتلر وسخرته لتحقيق المثل النازية .

قامت النازية على مبادىء روحية عاطفية ، استأثرت بعقول الشباب ، وعبثت بتفكيرهم ومسخت الحقائق أمام بصائرهم . وما كان النازي ليسمح للعلم الحر أن يقوى ويشيع ، لأنه لا يمكن أن يجد الاسس العلمية التي تستند اليها النزعة العنصرية الجديدة . بشر النازي بنقاوة الدم الآري وأفضلية العقل الجرماني ، وان الحضارة لم تشيد ولم يعل لها صرح إلا بفضل الجهود الآرية ، ومصير الانسانية معلق على هذا الجنس منوط به . وسيبلغ رسالته العالم بعد أن يسوده بالتنظيم الدقيق والكفاح المرير ، والحرب ضرورة حياتية لا بدَّ منها ليصل الجنس الى أهدافه ويتسنم ذروة السلطان والرفعة التي يستحقها .

ولكن العلم الصحيح لا يؤمن بهذا الهذر ، فلم تره النازية ضرورياً في بناء ثقافتها وبعث [illegible] هتلر في كفاحي « يجب أن تحور الأمة مركز ثقلها التربوي الى خلق الاجسام [illegible] قبل كل شيء . فحشو أدمغة الاطفال بالحقائق والمعلومات ورقي القوى [illegible] . ان هدفنا الرئيسي رقي الاخلاق وبالأخص قوة الارادة وتحمل [illegible] وبعد ذلك بمسافة بعيدة التدريب العقلي » .

ومن [illegible] حضارة البلاد عندما اضطهد العلماء والاحرار من اليهود والالمان وطردوا [illegible] وحقل البحث . فزاد عدد هؤلاء على الفي عالم بينهم الاخصائيون في علم [illegible] والرياضيات وعلم الحياة وعلم النفس وغيرها .

ولكن [illegible] أدرك أنه لن يحقق سيطرته على الارض دون الاستعانة بالعلم لتدعيم الاقتصاد [illegible] كما قال هاوزهوفر . فأقبل على العلم العسكري ورصد الاموال [illegible] وبلغت المختبرات أرقاماً هائلة ومهيبة . وسخر علماء المؤمنين [illegible] الزحف الحكيم .

أمحى من أذهان العلماء تحت ضغط النظام تقديس الحقيقة ومثل الحق والخير والجمال. وشاع التبشير بمذهب العنصر والأرض والدم والحديد. ووكل الى العلماء أن يشوهوا وجه العلم باختلاق الحجج الواهية لتدعيم المبادىء المضللة، وتبرير نزواتها الممعنة في التدجيل والتهريج.

وسأعطي مثلا في طريقة العلم الالماني الجديد في مسخ الحقائق، واحتقار نتاج العلم الخالد. يقول ستارك ... « عندما أتكلم عن نوعين رئيسيين من العقلية الطبيعية، فإنما أتكلم عن وعي واختبار وتدبر. درست كل الخصائص الذهنية التي ساقت العلماء الماضين الى الوقوع على استكشافاتهم فوجدت بعد دراسة أربعين عاماً، أن كل العلماء الموهوبين ومؤلفي الكتب ومبتدعي النظريات ينقسمون الى فريقين: فريق تسيطر عليه العقلية العملية، وعنها نجمت كل الكشوف الموفقة الخلاقة في الماضي والحاضر.. وهذه العقلية تنشد الحقيقة المطلقة والتيقن من صحة النواميس التي تتحكم في الظواهر الطبيعية المألوفة أو استكشاف الظواهر والحقائق المجهولة. وفريق ثان تسيطر عليه عقلية تقيدية [illegible]، وكم بين العقليتين من تباين واختلاف. فصاحب هذه العقلية يبتدىء بأفكار ذاتية نشأت في ذهنه، وبتعاريف وضعية تحدد العلاقات بين الرموز الرياضية — وتجد هذه الرموز دائماً تفسيراً طبيعياً — ويخلط هذه الرموز ويشتق بعد سلسلة من العمليات الرياضية المنطقية نتائجه على شكل معادلة ... هكذا صنع اينشتين عندما ابتدع نظريته التي تقوم على تعريف وضعي لاحداثيات الزمان والمكان وتفاعلاتها ... وهذه النظرية مثل صادق [illegible] نتاج هذه العقلية التقيدية ... ومثلها نظرية شرودنجر في الميكانيكا الموجية. فهذا العالم وصحبه، يجبرون الكهيرب على الرقص حول نواة الذرة بشكل فوضوي عجيب، فيظهر من الخارج كأنه في كل نقطة حول النواة في وقت واحد، ويحمل شحنة كهربائية متفرقة تتناسب مع استدامته الزمنية في أي نقطة ...

لقد أخذت على عاتقي مقاومة هذه العقلية التقيدية، لانني متأكد من آثارها السيء الهدام في تطور البحث العلمي الالماني.. وسأحصر كل جهودي في [illegible] الخطر اليهودي، إذ وجدت ان علماء اليهود أظهر دعاة هذه العقلية وأوفر [illegible] ولا بد أن تقودني هذه الاشارة الى وجهة النظر القومية التي يجب أن [illegible] ... إن تاريخ العلم يقدم جازماً بأن مؤسسي العلم الحديث والمكتشفين العباقرة [illegible] ونيوتن حتى يومنا هذا، كانوا على وجه العموم من العنصر الآري، وعلى [illegible] النوردية (النوردية). ونستنتج حتماً ان رجال هذه السلالة يمتازون مما [illegible] العملي أما مؤسسو النظريات اللاادرية الحديثة ودعاتها وناشروها فينحدرون [illegible]

بمثل هذه الطريقة من المغالطة والتضليل والسفسطة سوّغ التعصب الأعمى لأحد علماء النازية أن يجعل الثقافة والفكر والعلم والاختراع وقفاً على سلالة بعينها . مع أن الأمم القديمة والوسطى والحديثة اشتركت جميعاً في بناء الحضارة العلمية الراهنة . ولم تحتكر أمة على طول مجرى التاريخ العلم والمعرفة لأن سيل المعرفة يجري مع الزمن فتصب فيه الروافد من هنا وهناك مياهها العذبة الصافية ، بحيث لا يمكنك التمييز والمفاضلة بين ماء جدول وماء رافد ، أو بين مآثر أمة ، ومآثر أخرى .

وفي هذا المعنى يقول العالم النازي لينارد . . « يعجبون أن نقول : العلم الألماني ... كان يمكنني أن أقول العلم الآري ، أو العلم الذي خلقته السلالة النوردية Nordic ، علم الذين سبروا أعماق الحقيقة ، علم الباحثين عن الحق ، علم مؤسسي العلم نفسه ، قد يجيبون العلم دولي وسيبقى دولياً ، ولكنني أقول : هذا هراء ، فالعلم كأي أنتاج بشري آخر عنصري مرتبط بالدم .. »

هكذا احتقر الألمان تاريخ العلم وحقيقته ، واتخذوا منه دعاية عنصرية تصب سمومها في بحر الروح الألمانية المتسامية . يقول هتلر أيضاً « يجب أن نجد من العلم واسطة ننمي بها العزة القومية ، ونستعمل تاريخ العلم وتاريخ الثقافة في مدارسنا لنبلغ هذا الهدف . فالمخترع لا يكون عظيماً كمخترع فقط ، ولكنه عظيم كعضو فعّال في الهيئة القومية . والاعجاب بعمله الجليل، يتحول فخاراً وشرفاً، لأن ذلك العمل الجليل تمّ على يد أحد أفراد شعبنا. يجب وضع مناهج التربية ليخرج الشباب من المدارس ، لا ديمقراطيين ولا محبين للسلام ولا غير ذلك ، بل ليخرجوا ألماناً على قلوبهم » .

إذن لم يعش العلم في ألمانيا إلاّ ليعزّز الصناعة وينظّم الجيش ويزوّده بأسلحة الموت . وليس للمجتمع أي حق في أن يطالب بنصيبه في خيرات العلم ونعمه . فالمدفع أهم من الزبدة . والحاجات الحربية في الطليعة ، ولا يأتي بعدها شيء ، والأمة يجب أن تدعن لهذه الارادة التي أتاحها الحظ الحسن ، كما كان يخيل للناس ، لتنقذ ألمانيا من براثن العبودية ، وتمكن لها في الأرض . ويفصح « أرنست كريك » عن العلم الألماني بشكل أوضح عندما يقول : « ما هدف الثقافة الجامعية ؟ ! ليس العلم الموضوعي هدف التدريب الجامعي ، انه العلم العسكري المكافح ، انه علم الجنود الابطال » .

ويقول « برنارد رست » وزير العلم والتربية (الدكتور) : « يختلف العلم الجديد تماماً عن المعرفة التي يجمعها العلماء ، وتزيد قيمتها بازدياد الجهد المنطلق لبلوغ الحقيقة ، فحرية العلم الحقيقية تصبح عندما يصبح العلم أداة في بناء قوة الامة الحية ، وأداة في رسم مصيرها التاريخي ، وبعد ذلك يعرض علماً قوانين الحقيقة ... » . البقية في آخر مكتبة المقتطف »

في مشكلات السياسة الدالية :

أساس القانون الدولي

وطبيعته ومستقبله

— ١ —

البحث في فقه القانون بوجه عام مطلب دراسي عسير المرتقى بعيد الشقة ، لأنه أمر يتضمن التغلغل في الأصول الأولى التي ترتد إليها فكرة القانون أو صورته البدائية التي ارتسمت في عقلية الانسان . فهي دراسة ميتافيزيقية في جانب كبير منها أي أن شرحها وتفسيرها يعتمدان على التصوير الفلسفي القائم على التأمل المنطقي والنظر التجريدي ، وإن استمد القانون إلى جانب ذلك ، قواعد صياغته التشريعية ، من أحداث الواقع وسوابق العمل وتجاربه ، يضيفها إلى تراثه المتجدد ، بعد أن يطبعها بطابع الأقيسة المثالية العامة التي تحتمها طبيعته الفلسفية البارزة فيه .

ولقد هيأت معضلات السياسة الدولية وإشكالاتها المتعددة أذهان الناس ، ولا سيما خاصة المثقفين منهم لتناول العلاقة بين القانون والسياسة بالبحث والدرس ، ودفعتهم إلى ضروب من المحاولات وألوان من التأملات لتفسير ما عسى أن يكون ثمة من روابط السببية أو علاقات النسب والترابط بين منطقتي القانون والسياسة ، بيد أن فريقاً كبيراً من فقهاء القانون وثقات السياسة وعلماء الاجتماع ، قد انحاز إلى جانب تلك النظرية التي تقطع بأن ثمة ما يشبه الانفصال والتميز بين فقه القانون وفن السياسة ، فهما أفقان لا يلتقيان ، أو إن شئنا التحديد والتدقيق ، قلنا مع هؤلاء إن التفاوت ملحوظ في مستوى كل منهما إزاء الآخر ، فالقانون في مرتبة تعلو ، من وجهة التجريد وفلسفة الأخلاق ، [1] على مرتبة السياسة التي تلفق فيها حسبما توحيه إليها الأحداث العارضة والاهواء المتقلبة والمصالح المتنازعة في كل زمان ومكان !

فاذا برز لنا العامل الأخلاقي راجح الكفة على سائر العوامل الاخرى المكونة للنسيج الفقهي ، رأينا من الناحية الأخرى ، أن أهم العوامل المسيطرة على فن السياسة هو

---

(١) Ethics

نزعة التحلل من عامل الأخلاق وإطراح ونزع المُثُل التي ينعتها دُعاة السياسة ، من أصحاب النزعات المكيافيلية ، بعالم الخيال أو « اليوتوبيا » ، [1] ولا يرضون التقيد بها فيما يبثون فيه من مشكلات الدول وما ينظمون من علاقات الشعوب .

ويتجلى لنا هذا الموضوع في صورة أوضح ، عندما نحاول أن نحكم شئون السياسة الدولية بقاعدة القانون ، لنصل إلى تنظيم المجتمع الدولي تنظيماً يقارب بينه وبين المجتمع الوطني (الدولة) ، ما استطاع الساهمون في هذا التقريب إلى هذا الغرض من سبيل ، فإن الأمر ليكاد يفلت من أيدينا ، إذ نجد أننا بهذه المحاولة نكون قد نقلنا جوّ السياسة المضطرب ومحيطها العاصف بالأغراض والأهواء إلى أفق العدالة الرفيع وأوجها القضائي السامق حيث تتساوى مراكز الشخصيات الآدمية والمعنوية وتتسامت أوضاع المراكز القانونية ، وتصبح المصالح والحقوق أمام عدل القواعد التشريعية في مرتبة سواء .

وقبل أن نأخذ في عرض جوانب هذه العلاقة وتحليل عناصرها ، نستهل البحث بدراسة تحليلية لطبيعة القانون الدولي ووظيفته في محيط المجتمع الدولي وعلاقته بمشكلات السياسة العالمية ومدى توجيهه لمسار هذا المجتمع في جو من العواصف والأعاصير .

طبيعة القانون الدولي

يختلف القانون الدولي عن القانون الوطني لكل دولة حديثة ، في اعتبار فقهي بارز . فإذا كان القانون الوطني له سلطة تصدره وتحميه وتنفذ قواعده بالجبر عند الاقتضاء ، فأن القانون الدولي ما زال فاقداً لهذا العنصر ، وإن دلت التطورات الأخيرة في محيط السياسة الدولية ، على انه سائر في طريق استكماله . والواقع أن المجتمع الدولي ما زال حتى عهد قريب جداً ، مجتمعاً صورياً افترض العرف الدولي وجوده وحاول تنظيمه بما اخترعه من القواعد والنظم وما اصطلح عليه من أوضاع العرف والعادة وما وعته حافظته من مأثور التقاليد .

وهكذا نجد أن القانون الدولي تعوزه العناصر الرئيسة الثلاثة التي تمنح القانون الوطني قوته وتحمي سلطانه ، وتهبه الجدة المتصلة التي تتمشى مع تطورات المجتمع واستحالة ظروف الحياة فيه .

فإذا بحثنا عن السلطة التشريعية في المجتمع الدولي، أعيانا البحث ودخلنا في تفاصيل فقهية مرهقة ، وتيه من النظريات السياسية والاجتماعية لا أول له ولا آخر !

(١) Utopia

وهكذا الشأن اذا حاولنا أن نستبين مظاهر قاطعة تدلّ على وجود سلطتين للقضاء والتنفيذ بالمعنى الذي تفهمه في محيط المجتمع الوطني ، حيث تحتل هاتان السلطتان مكانهما التقليدي السابق ، وتؤثران تأثيرها البعيد في حياة الأفراد والجماعات ، سلباً وإيجاباً [1] .

واذا طلبنا قدراً من التحديد والبسط لهذا الايجاز قلنا : —

أولاً — تعوز القانون الدولي محكمة قضائية يكون لها اختصاص الفصل في شتى ألوان النزاع الذي يقوم بين أعضاء المجموعة الدولية ، ويكون قضاؤها فيصلاً حاسماً للنزاع المطروح ، يُلزم أطرافه كما يُلزم القضاء الوطني أطراف الدعاوى المطروحة عليه للفصل في موضوعها .

وقد كان منشأ محكمة العدل الدولية الدائمة راجعاً الى عاملين اقتضاهما سير الحياة في هذا المجتمع ، أولاهما التحكيم ، وهو من أعرق نظم التقاضي التي عرفها التاريخ الانساني ، وثانيهما اتفاق دولتين أو مجموعة من الدول على طرح أي نزاع يقوم بينهما ، على محكمة معينة ، هي في الأغلب محكمة دولية ، تكسب اختصاصها في الفصل بمقتضى هذا الاتفاق ، ويكون حكمها واجب النفاذ على من ارتضوا هذا الاختصاص .

ولقد جاء تحقيق فكرة المحكمة الدائمة للعدل الدولي ، بمثابة التأكيد المادي لهذا العرف والتوسع في تطبيقاته العملية في محيط الحياة .

إن انشاء هذه المحكمة لم يغير من طبيعة الخصائص التي تميّز بين قواعد القانون الدولي من مثيلاتها في مجموعات القوانين الوطنية ، ولم يترتب عليها غير خلق طائفة من الالتزامات تحملتها الدول التي قبلت الاحتكام الى هذا النظام .

ثانياً — ليس للقانون الدولي وسائط مادية حاسمة تكوّن له سلطانه التنفيذي الملزم الذي يستطيع أن يحمي قواعده بالجبر عند الاقتضاء .

وهو اذا أباح للمعتدى عليه أن يرد الاعتداء بمرونة الحق المخوّل له في هذه الحالة ، فانما يكله في هذا الدفاع الى نفسه ، وفي حدود استطاعته ، ولا يستطيع أن يمد اليه يد المعونة الاجتماعية التي قوامها مجتمع دوليّ حفيظ على حرمة الحقوق والواجبات ، كما يستطيع أن يمدها سلطان التنفيذ في المجتمع الوطني ليناصر أحكام القضاء برقابة جزائية ساهرة تؤكد سلطان العدالة وتحمي حرمتها إذا جارت عليها حوافز العسف والطغيان .

ولهذا يمكننا أن نقول إن الوسائل الجزائية التي نصت عليها المادة السادسة عشرة من ميثاق عصبة الأمم الماضية ، لم تكن في مجموعها سوى جزاءات أو عقوبات تأديبية تعوزها

(١) أي من ناحية الحق والواجب

السلطة التي تتكفل بفرضها أو تضطلع بتنفيذها عند الاقتضاء .

ثالثاً — كنا يعلم أن من بين المصادر التي تستمد منها القواعد القانونية وجودها ما اصطلحنا على تسميته بالعرف أو العادة الى جانب مصدر التشريع من سلطة عليا . والقانون الدولي في مجموعه لا يعرف غير المصدر الأول ، مصدر العرف والعادة ، ولا يكاد التشريع يحتل مكاناً بارزاً في ثبت مصادره ، لانعدام السلطة العليا التي تملك حق التشريع الملزم لمجموعة أمم المجتمع الدولي . وفي هذا نرى القانون الدولي يتفق مع قوانين المجتمعات البدائية التي لا تعرف في شريعتها غير احكام العرف والعادة . وليس يهمنا هنا ان نترسم الخطى أو ندرج مع التطورات الاجتماعية المتلاحقة التي صاغت من العرف والعادة قواعد سلوكية تلزم أفراد الجماعة ، فلعلّ هذا يكون أدخل في دائرة الدراسات السيكولوجية والاجتماعية المنفصلة منه في دائرة البحوث الفقهية الخالصة . وعلى كل فان القانون الدولي تدرّج في هذه المدارج وانصهرت قواعده في بوتقة التقاليد والموروثات ، وانضاف الى تراثه المتجدد على مرّ الزمن ، ما صاغته الوقائع والأحداث والتجارب من قواعد جديدة وما وجهت اليه الأفكار من أهداف مثالية موموقة .

على أنا نستطيع أن نتبين بعض الخصائص التشريعية التي تكاد تنوب مناب سلطة التشريع الى حد ما ، في محيط الفقه الدولي ، في صورة المعاهدات التي ينعتها فقهاء هذا القانون بالمعاهدات المشرعة Traités-Lois (١) أي تلك التي تضع قواعد قانونية جديدة يلتزم بها أطرافها مهما تعددوا . ولكن هذا المصدر التشريعي ما زال مظنة شك واعتراض كبيرين لأن المعاهدة مهما يكن من أمر محتوياتها أو مجال تطبيقها في المحيط الدولي لازالت تعوزها الخصائص الجوهرية للقانون . فهي من حيث عموم القاعدة وشيوع التطبيق وعالمية الالزام ناقصة الى أبعد حد ، فقد يتفق أن يكون من بين أطرافها من لا يلتزم بذات الالتزامات التي تفرض على طرف أو أطراف آخرين ممن وقعوا عليها .

ولقد بذلت محاولات عدة على مدى سنوات طويلة ، لادماج كثير من قواعد العرف التي تجري مجرى القواعد التشريعية الملزمة في صلب المعاهدات الثنائية او الاتفاقات الدولية العامة . ولكن هذه المحاولات لم تؤد الى نتائج ذات قيمة بسبب ما ذكرناه من أن المعاهدة مهما كان من شأنها أو مدى انطباق قواعدها على عدد كبير من الدول الملتزمة ببنودها ونصوصها ، لا تستطيع أن تمد رقعة سلطانها حتى تصل الى الدول غير الموقعة عليها لتخضعها لهذا السلطان . ويضرب فقهاء القانون الدولي مثالاً للتشريع الدولي في صورة مؤتمر لاهاي

(١) وتسمى بالانكليزية Law-making treaties

الذي عقد في سنة ١٩٠٧ لوضع النصوص التشريعية الكافية لتنظيم قواعد الحرب ، ولكن هذا الاتفاق وأضرابه لا يَرق إلى أن تكون مصدر تشريع دولي عام ملزم ، فهو بطبيعة الحال لا يُلزم ، كالمعاهدة سواء بسواء ، إلاّ أطرافه ، كما أن ثمة نقصاً فادحاً يتجلى في عدم إمكان التبادل في الالتزامات التي تشتمل عليها هذه الاتفاقات بين الدول الموقّعة أو مع بعضها ، بمعاهدات واتفاقات أخرى ، قد لا تخرج في نطاق اختصاصها ومدلول أحكامها ونصوصها عن مواد هذه الاتفاقات وبنودها !

ويمكن أن يقال إن الميثاق المرموز له باسم « بريان — كيلوج » [1] لمنع حروب العدوان بين الدول ، لا يمكن وصفه ، من وجهة الفقه القانوني ، بأنه عمل تشريعي بالمعنى المفهوم من اصطلاح « التشريع » وحقيقة هذه الميثاق لا تعدو مجرد اتفاق أبرم بين عدد كبير من الدول ، تتعهد فيه بأن تذر الحرب وترفض الاستعانة بها كوسيلة من وسائل السياسة القومية في فض منازعاتها وحماية مصالحها في محيط المجتمع الدولي - وأن تنتهج سياسة ودية مسالمة في تصريف علاقاتها وشئونها بين بعضها بعضاً .

وهكذا نجد أن الاتفاقات الدولية ليست إلاّ « عقوداً » [2] تبرمها الدول فيما بينها بوصفها من أشخاص القانون الدولي العام [3] فالدول ، بهذا الوضع ، لا تشرّع قوانين دولية ، بوصفها قوة أو سلطة تشريعية دولية ، ومن هذا يسهل علينا أن نحكم بانعدام أي أثر لما يسمونه « التشريع الدولي » بالمعنى الفقهي الدقيق لهذا الاصطلاح .

بيد أن هذا القصور الملحوظ في قواعد هذا القانون ، لا يجرّد هذه القواعد من طبيعة « القانون » لأن لها كثيراً من خصائص « القانون » الجوهرية . وإذا كان للسياسة أثر مباشر في توجيه قواعد القانون الدولي ، فهو أثر مماثل لذلك الذي يربط بين السياسة والقانون الوطني في كل دولة ، أي أن العلاقة بين « القانون » والسياسة ووثاقة الصلة بينهما في المحيط الدولي ، لا يمكن أن تجرد هذا القانون الدولي العام من خصائص « القانون » وملامحه .

(البحث صلة)　　　　　　　　　　صلاح الدين الشريف

المراجع :

(1) Krabbe, The Modern Idea of the State

(2) Zimmern, International Affairs XVII (January—February 1938)

(3) International Conciliation (December 1944 : No. 404 January 1945 : No. 407.)

---

(١) The Briand-Kellog Pact.

(٢) Contrats

(٣) في هذا الوصف تتلخص أهلية التعاقد التي تظهر في إبرام المعاهدات والاتفاقات

الرأي العام الاجتماعي
في مصر
وكيف يجب أن يكون ؟

نشر الاستاذ سلامة موسى في المقتطف ، الجزء الأول من المجلد ١٠٧ ، مقالاً تحت عنوان « الرأي العام الاجتماعي وكيف نكوّنه في مصر » . حدد صاحب المقال ، الشرطين التاليين :

١ — القدرة على الدرس بتوافر الوسائل للتعليم والاستنارة .

٢ — والقدرة على الافصاح بتوافر الوسائل للتعبير عن الرأي ، واعتبرهما شرطين أساسيين لتكوين الرأي العام الاجتماعي ، وبالتالي لتكوين الرأي العام المصري ، وجاء في المقال ما معناه : « ان في الأمم الديكتاتورية وسائل عديدة للتعلم ، ولكن النظام الديكتاتوري يحول بطبيعته كنظام استبدادي ، بين الأفراد وبين التعبير عن آرائهم ، بينما حرية التعبير عن الرأي متوفرة في كثير من الأمم الاسيوية ، ولكن القدرة على الدرس غير متوفرة في تلك الأمم . أي ان الشرط الاول متوفر في البلدان الديكتاتورية دون الشرط الثاني ، بينما الشرط الثاني متوفر في كثير من البلدان الآسيوية دون الشرط الاول ، لذلك ففقدان أحد الشرطين يمنع وجود رأي عام اجتماعي » !

لكن هذا الاستشهاد غير صائب على ما أعتقد لان من يمعن النظر في طبيعة نظم « الامم الديكتاتورية » وطبيعة النظم الموجودة في « كثير من الامم الاسيوية » يرى أن لا وجود مطلقاً لاحد هذين الشرطين ، لان طبيعة النظم الديكتاتورية لا تسمح بتوفير وسائل التعليم والاستنارة ، لأنها قامت على محاربة العلم والعلماء . وأنشأت تدريساً من نوع جديد ، كتبشير بديانة جديدة ، لتوجيه الشعب ، نحو خدمة هذا النظام الديكتاتوري وتمجيد القائم على رأس هذا النظام ، أي ان هذا التدريس مقصور خصيصاً . لقتل الرأي العام الاجتماعي . وهذا يفقد التدريس ، ميزته أو طبيعته ، كأحد شرطي تكوين الرأي العام الاجتماعي .

أما كون كثير من الأمم الآسيوية تتوافر فيها وسائل ابداء الرأي ، فلا أظنه مطابقاً للواقع ، إذ تسيطر على أكثرية هذه الامم تقاليد قديمة متأخرة ، تقف حاجزاً في وجه الجيل الجديد، الذي إذا ما ارتفع صوته مطالباً بهذا المشروع الاصلاحي أو غيره، وقعت عليه النقمة العامة . فكثيرون الذين يذكرون حادثة خلع ملك الافغان عند ما أقدم على تشريع السفور ، وتذكر أيضاً ان بعض زعماء المملكة العربية السعودية عارض في مسألة ادخال « التلفون » الى البلاد ! ويبدو من هنا ان الشرط الثاني غير متوفر بكامله في « الكثير من الامم الآسيوية » .

* * *

نعود الى صلب الموضوع كيف يكوّن الرأي العام الاجتماعي في مصر ؟

إن تحديد شروط ايجاد هذا الرأي أو تكوينه بالقدرة على الدرس والقدرة على الافصاح نظرية صائبة تماماً . ولكن ينبغي علينا درس الطرق التي يجب أن نتبعها لنجعل هذين الشرطين في متناول يد التطبيق ، إذ لا يمكن أبداً أن نلتمس وجود « الرأي العام الاجتماعي » إلى ظروف الزمان والمكان ، وإذا كان « الرأي العام الاجتماعي الحسن » في عام ١٩٤٤ ، غير الرأي العام الاجتماعي في عام ١٨٤٤ وغيره في عام ٢٠٤٤ ، فذلك بالنسبة الى أمة من الأمم ، وليس بالنسبة الى العالم ، فلو فرضنا أن النازية انتصرت في هذه الحرب ، لعاد الرأي العام الاجتماعي في العالم كله الى ما قبل ١٨٤٤ ولو بقي هذا النظام سائداً في المانيا فقط ، لبقي الرأي العام الاجتماعي الالماني وحده ، في طي الكتمان !

ومثل آخر : ففي عام ١٨٤٤ كان الرأي الاجتماعي في فرنسا ، رأي نسبة كبيرة من مجموع الشعب الفرنسي ، وأظن انها أكبر من نسبة ١٠—١٥ في المئة من أصوات الشعب ، كما في مصر اليوم ، وذلك لان نظام الحكم في فرنسا كان يومئذٍ ، وقد تشرّب بتعاليم الثورة الفرنسية الكبرى ، أكثر شعبية وديمقراطية من نظام الحكم الموجود اليوم في مصر وفي غير مصر .

إذن فالمسألة ليست مسألة زمان أو مكان ، وانما هي قبل كل شيء متعلقة بطبيعة نظام الحكم بالنسبة لهذه الدولة أو تلك .

ويقول صاحب المقال أيضاً ، إن الرأي العام المصري يعبر عن أصوات ١٠ — ١٥ في المئة من مجموع الأمة ، فمعنى هذا انه يعبر عن آراء الطبقتين العاليتين في مصر طبقة كبار الملاك وطبقة الصناعة الكبرى ، والى جانبها الطبقة المتوسطة ، المؤلفة من التجار الصغار

والمتوسطين ، والملاك الصغار ، وأصحاب المهن الحرة ، والحرف الصغيرة المستقلة ، والموظفين .

أما طبقة الفلاحين الكبرى ، التي تؤلف أكثرية الشعب المصري الساحقة ، ويليها طبقة العمال الناشئة ورأي هاتين الطبقتين مفقود تماماً ، لجهلهما من جهة ، ومن جهة ثانية لأن حرية ابداء الرأي ، مقيدة بعض التقييد في مصر ، وهذا مسؤول عنه أول شيء ، الطبقات المستأثرة بالحكم فيها .

وهذا دليل جديد على أن وجود الرأي العام الاجتماعي أو عدم وجوده ، يعود بطبيعة الأمر الى نظام الحكم ، الذي قد يسمح وقد لا يسمح بايجاد الشرطين الاساسيين لتكوين الرأي العام الاجتماعي . ومع وجود هذه الأقلية التي تعبر عن الرأي العام الاجتماعي ، أي الـ ١٠ و ١٥ في المئة فهي بدورها تنقسم قسمين كما يقول صاحب المقال ، الذين يؤيدون ظهور المرأة على الشاطىء مع الرجال ، والذين من جهة أخرى يحاربون هذه العادة .

ويعود هذا أولاً ، إلى وجود الطبقتين الكبيرتين : طبقة الملاك « الاقطاعية » وطبقة الصناعيين « البورجوازية » . فالطبقة البرجوازية ، هي بالنسبة الى الطبقة الاقطاعية طبقة تقدمية ، ولذا نرى خريجي الأزهر المتأثرين بتقاليد الطبقة الاقطاعية أعداء طبيعيين لكل نظرية تقدمية .

ولا يعني هذا أبداً أن تكوين الرأي العام معلق بانتصار الطبقة البرجوازية ، لأنها بالنسبة للحركات التقدمية المعاصرة في العالم ، باتت بدورها ، طبقة تنزع إلى التأخير . ولذا فوجود الطبقات التقدمية على رأس الحكم يساعد أكثر على إيجاد الشرطين اللذين يسهلان وجود الرأي العام الاجتماعي . ومن هنا يظهر معنا ، لماذا الغرب متقدم والشرق متأخر ، لأن طبيعة نظم الحكم في الغرب ، هي بالنسبة لنظم الحكم في الشرق ، تقدمية . وما التأخر الناجم في الشرق إلا لأن نظم الحكم فيه بأكثريتها ، اقطاعية أو شبه اقطاعية .

***

نعود فنقول : على فرض أنه وجدت على رأس الحكم في مصر ، طبقة تقدمية ، وأصبح نظام الحكم في مصر ديمقراطيًّا شعبيًّا ، فما هي المسائل التي يجب أن تنفذ ، للحصول على الشرطين الأساسيين ، لايجاد الرأي العام ؟

ان المسائل التي يجب أن تنفذ قبل غيرها هي :

١ — التحرر الوطني الكامل والسيادة الوطنية الكاملة « بتمصير » كل الشركات الاستعمارية الأجنبية .

٢ — تعميم المدارس المجانية الاجبارية الابتدائية

٣ — تأمين الحريات الديمقراطية العامة ، كالصحافة والنشر والكلام والاجتماع والاحزاب الخ .

٤ — محاربة البؤس ومكافحته بجميع الوسائل .

وإذا استطعنا تحقيق هذه المسائل ، أوجدنا أو كوّنا الرأي العام الاجتماعي ، الذي يساعدنا بدوره على تحقيق مسائل جديدة ومواد ديمقراطية جديدة مثل : نشر العدل في القضاء والادارة والمساواة بين جميع المصريين في الحقوق والقضاء والادارة ، ومحاربة المحسوبيات والرشوة ، وبالتالي إلى تحديد الثروات والأملاك الضخمة ، وحماية الصناعة المصرية الناشئة ، وتوزيع الاراضي على الفلاحين الذين لا يملكون شيئاً منها ، وحماية اليد العاملة بتوفير الغذاء والكساء والراحة والضمانات الاجتماعية المختلفة الخ . . .

هذا هو الحل الوحيد لنهضة الشعب المصري وتكوين الرأي العام الاجتماعي المصري ، ولا يمكن بعد تحقيق هذه المسائل أن نجد من يعارض مسألة استحمام المرأة وظهورها على الشاطىء ، ولا من يعارض في سفور المرأة وتعلمها .

أما مجرد تغيير كلمة شرق بغرب فلا أظن أنها كافية لتغيير مجرى الحياة العامة الحاضرة بمصر ، فبالأمس عمدت تركيا ، لا إلى تغيير كلمة شرق بغرب ، بل انقلبت رأساً على عقب من أمة شرقية إلى أمة غربية ، ولكنها مع الأسف لم تحقق تكوين الرأي العام الاجتماعي التركي ، لأن نظام الحكم في تركيا بعيد عن الديمقراطية الصحيحة ، ووجود حزب الشعب ، يمنع نشوء غيره من الأحزاب وتفكير تركيا في استعمار شعوب جديدة وضم ملحقات جديدة مثل لواء الاسكندرونة ، يمنعني من التفكير في تحسين حياة الشعب التركي ، وانماء الرأي العام التركي

ومهما كانت تقاليد الصعيد « والوجه البحري » متباينة ومتعاكسة ، فوجود نظام ديمقراطي صحيح يكفل للشعب المصري الحرية والهناءة والسعادة ، ويخلق تقاليد مصرية جديدة تدفع بأصحاب التقاليد القديمة الى الإنزواء .

كفر متى — لبنان — محمد الريب

الدعاية

أسباب نجاحها

عُدَّت الدعاية علماً . ولكن ليس علماً بالمعنى الدقيق للعلم ، أعني يمكن تطبيق قواعد ثابتة وقوانين راسخة على ما يعمل من دعايات يقوم بها الأفراد أو الجماعات ، لأن مجال الدعاية مترامي الأطراف متشعب الفروع وطرقها غامضة غير معبدة ومسالكها شائكة وعرة. فميدان الدعاية ومجال نشاطها يتصل بالعقول مؤثرة في الحوادث ، ومتأثرة بها . والعقول والحوادث عنصران يخضعان لعوامل متغيرة متقلبة ، أبعد ما تكون عن صفات الثبات والاستقرار . ثم ان الداعية يخدم مبادىء ثابتة يضعها نصب عينيه ، ولكنها في نفس الوقت مطاطة فضفاضة . ويتوقف مقدار نجاحها على مدى تمسكه بهذه المبادىء ، إزاء ما يلاقي من مشاكل أو ما يواجه من عقبات ، أو اهماله أمر هذه الأسس وتلك المبادىء .

وقد فطن القائمون بأمور الدعاية الى ميدانها الواسع الفسيح وعرفوا أن هنالك طريقة مباشرة آلية تعمل على سحق المعارضة جهراً وعلانية ، وأخرى غير مباشرة وهي وسيلة دقيقة حذرة عاقلة ، توحي بالآراء التي ترى بها في قلوب الناس في كياسة ولباقة ، فلا يفطن الى ما يترتب الى أذهانهم من آراء طريفة ومعتقدات جديدة . ويستقر في روعهم انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء وعقائد بمحض قوة ملاحظتهم ، ودقة استنتاجهم ، ولكل من هاتين الوسيلتين — المباشرة وغير المباشرة — قيمته وأثره في المحيط الذي خلقت له ، ولكن الداعية الذي يعتمد على الطريقة غير المباشرة ، أمامه مجال أوسع وأفسح لمدى نشاطه وهمته . والداعية لكي تكون له القدرة على املاء رأي من الآراء على جمهوره ، يجب أن يستند الى هيئة سياسية منظمة تشد من أزره وتكون له عوناً ، كما يجب أن تكون له شخصيته القوية البارزة في جماعته ، المسيطرة سيطرة مباشرة على اولئك الذين يود التأثير فيهم ، فاذا تشعبت الأغراض وتفرّعت الأهداف حيث يجب أن تلتقي وتتصل بعضها ببعض ، فان الاغراء هو الوسيلة التي يجب اتباعها وهي وسيلة لها أهميتها وميزتها ، إذ هي كفيلة باكتساب أتباع أشد اقتناعاً وأقوى ثقة بما يؤمنون . والقول المأثور: الرجل الذي تقتنع قسراً وضد ارادته ، يبقى على رأيه القديم ، خالداً ما يتردد وقعه على أذني الداعية فيحيره في أمره ، بينما تجد أنه عندما يلجأ الى الاغراء يثبت الغرور الكاذب والخيلاء الباطلة

في أذهان اولئك الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، إذ انهم يؤمنون ايماناً صادقاً انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء ومعتقدات عن طريق العقل ، أحراراً مستقلين ، لم ترغمهم قوة أو يخضعهم سلطان ، ولذا يكون من الصعب تحولهم ، إذ يجب عليهم في هذه الحال الاعتراف بما وقعوا فيه من أخطاء وبخاصة أن ليس هناك غيرهم يلقون عليه تبعة هذه الأخطاء ، ولذا نهم يميلون الى مقاومة كل حجج تعارض وميولهم ، حتى ولو كانوا في دخيلتهم يصرحون بأنَّ لها قوتها ووجاهتها .

ولأجل أن يضفي الداعية صفة البساطة والسهولة على ما يدعو اليه من معقد الأمور ، وضعت سبعة أسس سميت أسرار نجاح الدعاية السبعة . والداعيـة الذي يطبقها في حملاته المستمرة يتيح لنفسه فرصاً طيبة للفوز ، ولـكن هذا التحديد يؤكد لنا بأن الداعية كثيراً ما يكون تحت رحمة الحوادث . ولا أهمية لمهارة الداعية أو مثابرة أو حسن اعداد خطط الدعاية ، وأنما النجاح موكول للظروف ، إذ أن الداعية معرّض في كل وقت بخطر الهزائم المنكرة بسبب التغيرات الفجائيـة في مجرى الأمور والتي ليس له عليهـا من سلطان ، لأن العواطف وتذبذبها والأهواء وتأرجحها من أكثر المشاكل تحيراً للعقول إزاء القضايا العامة لأن الشرارة التي تبعث الحياة في حركة من الحركات تخبو لتغير سبب ظاهر . والدافع اليهـا يضمحل دون مبرر ملحوظ . فان معبودات جيل من الأجيال تحت رحمة حطمي الأصنام في الجيل التالي ، فاذا ما أخذ الداعيـة التكوين النفسي لمجتمع من المجتمعات او جماعة من الجماعات على انه ثابت لا يتغير ، فقد ارتكب أفحش الأخطاء وأنكرها ، فيجب عليـه أن يكون دائماً على حذر وأن يعد سياسته بحيث تتفق ونفسية الجماهير . والقواعد السبع الآتية لها أثرها الفعال وهي دستور الدعاية .

سر نسيان الجمهور

١ ــ التكرار هو السر الاول من أسرار نجاح الدعاية : ومن سرعة نسيان الجماهير ما نراه منها في حادث من الاحداث يلمع فجأة في وسط الظلمات وينفـذ بريقاً الى السطور الأولى في الصحافة ، ثم سرعان ما يخبو ضوؤه وتتزاحم الحوادث الواحدة اثر الاخرى قبل أن يجد الجمهور فسحة من الوقت ليتعرف أهمية هـذه أو خطورة تلك ، ولـكن يطوي النسيان هذه وتلك معاً وفي سرعة فائقة . ففي قضية قتل ، مثلاً ، يتهم فيها عامل زراعي أمي مجهول مغمور ، تتداولها ألسنة آلاف مؤلفة بالذكر والترديد . ولكن سرعان ما ينسى هؤلاء كل ما يتعلق بالقتل والقاتل ، ولا يعودون يذكرون حتى اسمه في مدى شهور قصيرة . ثم لنذهب الى الطرف المقابل لذلك . سياسي يأتي حدثاً تتخاطفه أسلاك البرق في مختلف

مناحي العالم وتتداوله الأقلام والأفواه بالنقد والتعليق في الصحف ومن أعلى أعواد المنابر، كما تشغل ذهن رجل الشارع فيناقشها مستحسناً أو مستهجناً لها ، ولكن سرعان ما يسدل عليها وعلى ما أثارت من ضجة ستار النسيان ، فكم منا يذكرون ، اذا سئلوا ، تصريح سير صموئيل هور المشهور الذي ألقاه في جمعية عصبة الأمم عام ١٩٣٥ عما بذلت بريطانيا من جهود ليكف موسوليني عن نشاطه في الحبشة ، بأن عرضت عليه عرضاً جديداً بشأن اعادة النظر في مشكلة المواد الخام .

وفي ضعف ذاكرة الجماهير والجماعات يقوم نجاح الدعاية وانتصارها المبين أو يكمن فيها فشلها الذريع . فذلك الضعف يساعد الداعية على أن يغير مسلكه دون أن تلتفت إليه الأنظار ، وفي نفس الوقت تلقي على كاهله واجبات وتحتم عليه التزامات . فيجب أن يكرر ويعيد دون أن يمل . ويجب على الداعية أن يقف إزاء ما يقع من الأحداث في كل يوم متحفزاً للعمل دائماً لا يفتر ولا يلين ، فاذا كان عمله مقصوراً على ان يبعث برسائله وتقريراته إلى رجال خاضعين للدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية في كل ما يعملون ، كان عمل الداعية في هذه الحال سهلاً يسيراً بالقياس إلى غيره .

ولكن إذا كان الداعية يعمل دون أن تظاهره قوة رسمية ، بل وربما كان يعمل معارضاً الهيئة الحاكمة أو محارباً النظام الاجتماعي القائم ، وجب عليه أن يكون ملماً بما تقدم من الأمور أو تشعب وتشابك منها ، بأن يعرض الموضوع الواحد في صور لا عدد لها ولا حصر مختلفة الأوضاع متعددة الألوان ، لأن التكرار يورث الملال والسأم إذا لم يصطبغ في كل مرة بصبغة الجدة ، ويقعد الجمهور عن الاهتمام بما يدور حوله من مناقشات . ولكن الداعية إذا ثابر واكتسب إلى جانبه أعضاء جدد يحبون اتجاهه ويأخذون برأيه ويؤيدون دعوته ، فانه لا يلبث أن يظفر بتأييد بعض طبقات العامة ، وفي الوقت المناسب تصبح الدعوة التي ينشرها وآراؤه التي يبشر بها سدى العقول ولحمتها .

التكرار ، التكرار ، التكرار . لكن هو رائد الداعية فإن من المؤكد أن في كل مكان وزمان يوجد فريق من الناس يحاجون أو يناقشون ويتدرون بالنقد أو التقريظ موضوع الدعاية أياً كان هو ، لأن العدو اللدود لأمر من الأمور هو إهماله ونسيانه أو تناسيه ، والحملات العنيفة ، قطعاً ، أفضل له من تجاهله ، فمثلاً لما قذف المتمدون سير صامويل موزلي بالأحجار في اجتماع عام ، قامت الصحف المعارضة تطالب بأن يترك وشأنه وحيداً أعزل دون حماية أو رعاية . ولكن سرعان ما أدركت الصحف جميعاً إنها كانت حمقاء وبسبب حماقتها قفزت الأخبار الفاشية إلى الصفحات الأمامية والسطور الاولى في الصحف وإن كان زعيم الحركة الفاشية وهو سير صمويل موزلي قد دفع عن هذه الدعاية ثمناً . ولكن مما لا شك فيه إن الحادث

كان دعاية ناجحة غاية النجاح .

يمثل هـذا الحادث عنصراً أساسيًّا في الدعاية الصحافية التي قوامها التكرار . وجرت العادة أن تكون كل جرعة من الدعاية لها قيمتها الاخبارية ، لأن قيمة الاخبار في الصحافة الحديثة لها قدرها وخطرها والحكم عليها قاس لا يرحم . وليست المعضلة في ملء أعمدة الصحيفة ولكن أن تضغط أخبار أربع وعشرين ساعة في حيز ضيق أمر يدعو الى الشفقة بالقائمين بشئون الصحافة . وهناك نوع من الاعلانات الاخبارية المقنعة ويطلق عليها بالانجليزية Puffs (وهي اعلانات لهيئات تجارية أو سياسية توضع في صيغة أخبار دون أن يلحظ القارىء انها مقصودة لمجرد الاعلان) ، وقد أصبح الاعتراف بها حقيقة واقعة لا يمكن انكارها ، كما لا يمكن تفاديها بحال ، رغم ما تلقى من معارضة شديدة حدت بالمشرفين على الصحافة الى ضغطها واختصارها الى الحد الادنى . والداعية الذي يعتمد على أوساط الحلول في عمله ، لا يلبث أن يجد نفسه بلا عمل فيجب عليه أن يصل بدعايته الى الذروة دائماً ، والاَّ أعطى خصومه الفرصة أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى محاربته .

الرئيس ومصارع الثيران

٢ — اللون هو الأساس الثاني من أسس الدعاية السليمة : لا يعبأ الفرد العادي بالمعنويات ولكنه يهتم كثيراً بالشخصيات والحقائق . وقد أدرك الداعية الحديث هذه الحقيقة ، فهو لا يحاول فرض حججه فرضاً على العامة ولكنه يسعى بنشر تقريراته التي يذيعها الى كسب العطف على قضيته أو ليثير السخط على خصومه ، وغالباً ما يكون لمثل هذه الدعاية أثرها الفعال . ويجيء هذا الأثر عن طريق الحوادث يجمعها وتكون في مجموعها شاذة خارقة للعادة تترك أثراً عميقاً في النفس وان كان خادعاً . لأن من عادة رجل الشارع أن يناقش الاشياء الخاصة وينتهي بها الى مباديء عامة .

ولا يسع الداعية أن يلتفت كثيراً الى هذا المبدأ عندما يكون هدفه التأثير في الجماهير . فبينما نرى القارىء يولي سريعاً عن الدعاية الصينية القائمة على معاهدة الدول التسع ؛ نراه يقبل في حماس وشغف على قصة شارلي سنج الذي هاجر طفلاً معدماً الى الولايات المتحدة والذي غدى بناته الثلاث فيما بعد قابضات على السلطة في حكومة الصين وعالمها ومدام شيانج كاي شك إحداهن ، ويلعبن دوراً خطيراً في تاريخ الصين الحديثة .

والمتكلمون من الطراز الاول وخطباء الطليعة يدركون ويعترفون بصحة هذا المبدأ . فلا بد وان يتأكدوا من أن كل فرد من جمهور المستمعين يتتبع بشغف ما يناقشه الخطيب أو المتكلم . لأنه ليس من الصواب أن نرغم الأقلية على تتبع ما نقول اذا كنا نهتم بما ندلي به

من آراء ما يخص الأغلبية الباقية من المستمعين ، والأجدى لنا أن نخاطر بالادلاء بأحاديث عن شئون ملموسة بلغة العيان الى الأقلية النابهة من أن نسحر الأكثرية بما نقول .

ومما يقوي هذا القول حقيقة أن من السهل على غالبية الناس أن تتبع بحثاً مطبوعاً سهل التناول مدعماً بالأدلة والبراهين ، من أن يستمعوا الى هذا البحث نفسه من فم خطيب على منبره ، فان الجهد الذي يبذله المستمعون لحصر انتباههم في أثناء الخطابة ، أعظم منه في حال القراءة الهادئة الصامتة .

وفطن هتلر الى هذه الحقيقة واستوعبها فعاد هذا المبدأ أحد القواعد الأساسية التي يسترشد بها ، واذا ما قارن نفسه بلويد جورج ويتهم هولوج[1] فهو يعزو عظمة السياسي الانجليزي المنقطعة النظير الى البساطة التي يتمتع بها والتي لها السحر المبين في أذان السامعين ، فالسهولة التي تصبغ خطبه ، واليسر الذي يتجلى في تعبيراته ، والصور الواضحة الهينة التناول التي يوردها في أحاديثه دليل قاطع على قدرة رجل وينز[2] السياسية الفائقة .

ولا يقتصر هذا على الدعاية الكلامية بل يشمل الدعاية الصحفية أيضاً ، فواجب الكاتب أن يكتب في حدود الكلمات المألوفة لدى القراء ، ويجب عليه أن يستغل ميولهم ويفيد من جهلهم ، ولكي يوضح « وول ايرون » هذه النقطة يروي القصة التالية عن الحرب الاسبانية : فان الصحافة الاقليمية في هذا البلد كان من السهل على الداعية شراؤها بالمال تنفقه لتعيش وتبقى . نشرت هذه الصحف قصة ما نشرت الصحف الكبرى أن نشرت القصة ذاتها ، وهي تصف ان إحدى كريمات الرئيس ولسن أحبت في أثناء زيارة لها في « بيرجوس » مصارع ثيران ، ثم ما لبثت أن تزوجت منه ، وأثمر هذا الزواج طفلاً ذكراً . ولكن الرئيس صلب القلب متحجره ، فأرغم ابنته على العودة الى أرض الوطن وهجر زوجها والتخلي عن ولدها ولم يمض وقت طويل حتى لقي البطل حتفه في حلقة السباق وأسلمت الأقدار الطفل الى جدته المعدمين اللذين كتبا الى الرئيس ولسن يستجديانه بعض المال لتربية حفيده ولكن ضاعت جهودهما سدى ولم يظفرا منه بطائل رغم الالحاف في السؤال .

والداعية الالماني لم يحسب خياله هذه القصة كان يعرف أن الرئيس ولسن هو الشخص الامريكي الوحيد الذي يسمع بعه الفلاحون الاسبان . وان للاسبان غراماً بالأطفال لا يفوقه غرام ، وان يعشق كل اسباني وأسبانية هو مصارع الثيران . وضعف هذه القصة في نظر الناظرين يعادله ويفوقه تقدير لمقدرة مخترعها حيث تمكن أن يخلق جواً يبدو فيه صادقاً صدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(١) كبير وزراء انكلترا في الحرب الـ ... (٢) لويد جورج كبير وزراء انكلترا في الحرب الاول

وقصص التعذيب والارهاب تزدهر أيما ازدهار في جو الحروب الخانق المسمم، فإنه من الضروري جمع وتركيز الكراهية القومية على العدو وعرف الدعاة أن خير الطرق لتنفيذ ذلك هو أن نعطي العواطف حركات مسرحية ونصبغها بألوانها ونضيئها بأنوارها، ويكون ذلك بالتركيز على شخصيات البارزين فإن شطحات الخيال وسبحاته في ابتكار قصص التعذيب أو تحويرها أو مسخها حتى تلائم الهدف الذي يُرمى إليه، قد وصلت آماداً بعيدة وبلغت آفاقاً نائية في الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بصورة تدعو إلى الدهشة والاعجاب . وقد انغمس كل من الجانبين المتحاربين في إبراز صور التعذيب وألوانها . ولكن كان لدعايات الحلفاء نصيب أوسع وأكبر من الذيوع والانتشار من دعايات الأعداء لسيطرة الحلفاء على طرق المواصلات وتحكمهم فيها ، فقد كانوا سادة الموقف والقابضين على ناصية الأمر .

وقد أفاد الحلفاء ، ولا مراء ، مما ارتكب الألمان من أخطاء فاحشة فإن « كابتن فريت » عند ما حاول أسر غواصة ألمانية بسفينة تجارية غير مسلحة ثم أخفق ، أعلن الألمان أن حقه كأسير حرب قد سقط ، وأعدموه رمياً بالرصاص . وقد هزّ إعدام هـذا البحار الجريء ، العالم أجمع وألحق بالقضية الألمانية خسارة لا تقدّر . فقد استغل الداعية هذا الحادث ، كما استغلّ حادث الممرضة « إديث كافل » من قبل عند ما صور الحلفاء بطولتها في جلال وتعظيم جعل حياتها مشكاة تضيء ظلمات سني الحرب السود . فإن الهيئة التي أصدرت حكم الاعدام كانت من الغباء وقصر النظر لدرجة ظنت معها أن موت « اديث » لا يهم . فطالما أعدم كثير من النساء من كلا المعسكرين ، من قبل . ولأنها كانت تشترك فعلاً في مؤامرات سرية تدبر خلف الخطوط الألمانية ، فكشفت المحكمة بإصدارها حكم الموت عن جهل مطبق بالطبيعة الانسانية والنفس البشرية .

وكان للحلفاء أيضاً ميزة كتابها البارعين والرسامين والعباقرة الذين كانت كتاباتهم ورسومهم مرّة المذاق شديدة الوقع على الأعداء، فإنه من المستحيل أن تنظر إلى إحدى صور « زاعيكي » الهولندي دون أن تؤمن بمدى المعونة الهائلة التي قدّمها للحلفاء ، فقد صوّر في إحدى روائعه اعتداء الألمان على السفن المحايدة وإغراقها في لوحة تمثل اجتماع شرذمة من جنود الألمان احتشدت متهالكة على بعضها في برج المراقبة في غواصة حيث يراقبون اقتراب زورق وقف به السيد المسيح وكتب تحتها عبارة وجيزة ولكنها بارعة : « إنه يبدو محايداً . فلنغرقه » . منذ هذه الصورة كان لها تأثير صدع أركان الدعاية الألمانية ، وقوّض أسسها في نضالها الحلفاء حينذاك . [illegible] صابر تاوضروس الأسيوطي

البزّ

The Barbus Esocinus

١ — ﴿ تمهيد ﴾ البز بكسر الباء الموحدة التحتية وشدّ الزاي ، سمك عظيم يكون في الرافدين (أي دجلة والفرات) ، وأغلب ما يكون في الزاب الصغير أحد روافد دجلة في الشمال ، لأنه يجِدُ فيه نقراً وأحواضاً ومغايض ، فيسْرأ فيه ويفرخ ، لأن ماءه هادئ ومطمئن ، وينحدر كثيراً الى دجلة ، وأحياناً الى الفرات ، فيصاد عند انحداره الى الرافدين ، وكثيراً ما يكون ضخماً ، قد يزن من خمسين الى مائتي كيلو غراماً ، إذا بلغ أشده ، أو بلغ عمره ستة أعوام فأكثر .

٢ — ﴿ أصل البزّ البيس ﴾ البز ، اسم معروف من شمالي العراق الى جنوبيه ، ومن شرقيه الى غربيه ، وعند جميع الأقوام من عرب وكرد وفرس وأرميين ، ومسلمين ونصارى ويهود ، بلا أدنى خلاف أو أدنى تغيير ، لكننا لا نجد له أثراً في الأسفار القديمة . والمظنون أنه لم يكن هذا الاسم معروفاً في قديم الزمان ، والذي وجدناه (البيس) ، بكسر الباء الموحدة التحتية ، وسكون الياء المثناة التحتية ، وفي الآخر سين مهملة . هكذا ذكره دوزي المستشرق الهولندي في تأليفه الملحق بالمعاجم العربية في مادة (ب ي س) ، ولم يشر الى البز ، على ما ذكرناه هنا ويعرفه به العراقيون . فقد قال في المادة المذكورة ما هذا نقله الى لغتنا : « بيس ضرب من سمك النهر . جاء ذكره في مخطوط يرى في الاسكوريال ، رقمه ٨٨٨ العدد ٥ . والذي أفادني هذه الفائدة الأديب م . سيمونه ، ويظن انه من الاسبانية ... بمعنى سمكة » ا هـ .

ويصف دوزي هذا المخطوط في مقدمته بقوله : « اسمه كتاب منافع الحيوان لعليّ بن محمد أبي الفتح بن الدُّرَيْهم الموصلي المتوفى في بغداد سنة ٧٦٣ للهجرة » = (١٣٦١ م) فلا جرم أن هذا العراقي كان يعرف معرفة صحيحة اسم هذا الحوت الذي هو أعظم حيتان النهرين .

٣ — ﴿ اسم البزّ القديم هو الحشري ﴾ على ان البزّ أو البيس لا يعرفهما فصحاؤنا

الأقدمون في عصر العباسيين في صدر الخلافة ، ولا ذكروها في تآليفهم ولا في معاجمهم . وكذلك لم يعرف هذين الاسمين الارميون ، ولا الفرس ، ولا الترك ، ولا الكرد الذين كانوا مبثوثين في تلك الديار من قديم الزمن .

والذي كان معروفاً عند بني عدنان (الزَّجْر) ، بزاي مفتوحة وجيم ساكنة وفي الآخر راء . ويقال فيه أيضاً (الزجر) ، بفتح الجيم . ويعرف عند الارميين بلفظ (زجرا) بزاي مفتوحة وجيم ساكنة يليها راء وألف . ولم يصفه لنا أحد من لغويهم ، فذكره بر علي وبر بهلول ومن أخذ عنهما بقولهم : « سمك عظيم في دجلة » ومن لغويهم من لم ينوه باسم دجلة ، بل قال : « سمك عظيم الجثة صغير الحرشف » — وهو لا يوافق إلا البزّ .

وأما لغويونا فقد قالوا : « الزجر ، بالفتح ، كما هو مقتضى سياقه (أي سياق كلام الفيروزابادي) ، وضبط الصاغاني بالتحريك : سمك عظام ، صغار الحرشف ، ويحرّك . ج : زجور هكذا تتكلم به أهل العراق . قال ابن دريد : ولا أحسبه عربيًّا (صحيح الاصل) » اه .

٤ — ﴿ اسم البز عند الفرس والترك ﴾ توهم بعض اللغويين الذين يحسنون العربية والفارسية أن الزجر مشتق من مصدر زجر الكلبَ يزجره زجراً ، وزجر به زجراً : نهاهُ وتوهموا أن السمك المعروف بالزجر هو كلب البحر لهذا السبب . وقالوا : اسمهُ بالفارسية « الشيم والسيم » بكسر الشين المعجمة أو السين المهملة على السواء . ولذا قال صاحب الجمهرة : الزجر ليس عربيًّا ، ونحن نقول أن اسمهُ بالارمية والعربية من أصل أشوري ومعناهُ : العالي المرتفع الضخم الخلق وهي صفة هذا الحيوان المائي .

أما الترك فيسمونه كما سماهُ الفرس بلسانهم أي « كوبك بالغي » الذي معناه سمك الكلب . والذين يعرفونهُ بهذا الاسم غير الترك الحاليين الذين يجاورون دجلة ، بل الترك أرباب الأدب والتصانيف . أما الترك الحاليون فيسمونهُ باسمه العربي (البزّ) وممن ذكرهُ باسم كوبك بالغي صاحب الاوقيانوس عاصم جلبي ناقل القاموس .

على أن صاحب (برهان قاطع) قال : الزجر هو الشيم بالفارسية . قلنا : وهذا اسمهُ بالفرنسية silure وهو غير البز عندنا . ومثل هذا القول قال صاحب مقدمة الأدب (الزمخشري) وهذا نصهُ : « زجر (بالفارسية) : ماهي شيم » . والزمخشري حجة ثقة في لغتنا ، كما أنهُ حجة ثبت في الفارسية . وعليه : لم يكن علامتنا يحسن علم الحيوان من ذوات الاربع والطير والحشرات والسمك ، وهو غير عجيب لأن الاقدمين كانوا يحسنون اللغة دون علم الحيوان ولا علم النبات ولا علم المعادن ، إذ كانوا يعرفون شيئاً ويجهلون أشياء .

زد على ذلك أن العلماء لا يتمكنون من الوقوف على جميع العلوم فهذا محال ، أو قد

بزل العالم كما قد يكبو الجواد وإن كان أصيلاً ، وقد ينبو الحسام وإن كان جُرازاً . وهناك أمر آخر هو أن الكلمة الواحدة قد تدل على حيوانين أو ثلاثة أو أكثر ، فإن العيلم يعني الضفدع والسلحفاة الذكر والعلوش كجملوز : الذئب ، وقيل : ابن آوى ، ودويبة وضرب من السباع . — والعلجوم : الضفدع الذكر ، والقراد ، والظبي الآدم ، والظليم ، والكبش والوعل والثور المسن ، والبطة الذكر ، وطائر أبيض هو الجع عند أهل العراق والشديدة من الابل ، وقيل خيارها . وعليه قد يكون الزجر من هذا القبيل .

٥ — ﴿ من أي لغة جاءتنا البز أو البيس ﴾ رأينا أن الأصل لكلمة الزجر هو الآشورية، فن أي لغة جاءتنا البز المنقولة عن البيس ؟

ذكرنا عن دوزي أن البيس في نظر سيمونة Simonet من الاسبانية Pez أي سمكة ونحن لا نوافقه عليه لأسباب منها :

إن البز أو البيس معروفة في العراق وغير معروفة في الأندلس ، والاسبانيون لم يتصلوا بأهل العراق حتى يأخذوا عنهم ألفاظاً ، إذ لم يأخذوا منهم كلة واحدة .

الثاني : إن الكلمة الاسبانية تعني السمكة أية كانت غير خاصة بجنس أو نوع أو ضرب .

الثالث : ان الذي ذكر هذه الكلمة كاتب موصلي لم يعش في الأندلس ولم يكن في ديار الغرب حتى يستعير منهم حرفاً من حروفه، فلم يبق لنا إلا القول بأن الكلمة منقولة عن لغة قوم كانوا في العراق غير الاسبانيين الذين لم يكونوا في ربوع الجزيرة أو ديار بين النهرين يوماً واحداً .

والذي نراه نحن أن البيس أو البز مأخوذة من اللاتينية (بربوس[1] أو بربيس Barbus وهو

(١) قلب الواو ياء أكثر من أن يحصى ، ان في الالفاظ الاعجمية وان في العربية الصميم ، ولا نقل الدميمة كما يقول النير مهر خطأ) . فقد قالوا في نقل الاعجمية صور وهي Tyr وقالوا اشورية في Assyria وسورية (لاسوريه) في Syria واكسوفاني في Oxythaphion وبوروق أو فروق في Pyrrhon وجاء في التاج نقلا عن لسان العرب في مادة (خ ي ص) : قال الاعشى يهجو علقمة بن علاثة :

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصا لقد نال (خيصاً) من عفيرة خائصا

فن الاصمعي : سألت المفضل عن قول الاعشى هذا : ما معنى (خيصاً) ؟ — فقال : العرب تقول فلان يخوص العطية في بني فلان ، أي يقللها . قلت : فكان ينبغي أن يقول : (خوصاً) . فقال : هي معاقبة يستعملها أهل الحجاز ، يسموق الدواع : الصياع . ويقولون : للصيام الصوام . ومثله كثير . اهـ وعندنا من هذه الشواهد ما لا يحصى ، فنجتزىء بهذا البعض من الكل ، اراحة للقراء ، اذ كثرتها لا يفيد شيئاً من حقيقته .

اسم الجنس الذي ينتمي إليه هذا السمك واسمهُ كلبُ والعلمي Barbus esotinus فحذف صدر الكلمة وأخذ بعجزها . ومثل هذا الفعل معروف في لغتنا وكثير الوقوع فيها . فقد قالوا : أدرة والاصل أدرة قيلة Hydrokélé ، وكما تقول اليوم كيلو وسينا والاصل كيلو غرام ، وسينماتغراف . وربما فعل سلفنا ما هو بعكس هذا الامر أي يهملون العجز ويأخذون بالصدر كقولهم الهزار وإنما هو هزار دستان ، أو القيلة والاصل أدرة قيلة إلى غير ما هناك من الشواهد

وكان الدكتور أمين المعلوف ، رحمهُ الله ، يذهب إلى أن البز مأخوذ من البسّ بمعنى الهر[٢] وكنا ذهبنا نحن إلى أنه من اليونانية Piscis لكن اليوم نعدل عن هذه الفكرة إلى أنه من بربوس كما تقدم الكلام آنفاً (راجع معجم الحيوان ص ٢٧) و (لغة العرب ٨ : ٤٦٨) ففيهما ما يغني عن التكرار .

٦ — ﴿ اسمه عند الافرنج في الشرق ﴾ الافرنج الذين يترددون الى البلاد التي يرى فيها البز يسمونه Poisson de Tobie أي سمك طوبيا ، اشارة الى هذه الآية الواردة في السفر المنسوب اليه : « وسافر طوبيا ، والكلب يتبعه ، فبات أول منزلة بجانب نهر دجلة . وخرج يغسل رجليه ، فاذا بحوت عظيم قد خرج ليفترسه . فارتاع طوبيا ؛ وصرخ بصوت عظيم قائلا : « يا مولاي قد اقتحمني » (سفر طوبيا ٦ : ١ — ٣)

والذي في رواية النسخة السينائية ، وهي نسخة عتيقة يعرفها البصراء من الباحثين : « حاولت أن تلتقم رجله ، فارتاع طوبيا ، لكنه أخرج السمكة من أذنيها ، على أمر الملاك الى الضفة » .

قال العلامة فيكورو Vigouroux ، صاحب معجم التوراة : « أن النص المقدس لا يذكر شيئاً بخصوص حقيقة هذه السمكة والفراتان كثيرا السمك ، وأهالي شواطئهما يقتاتون به منذ زمن طويل فهم يأكلونه غضّاً ومملحاً ومدخناً . وييبّسونه في الشمس ويسحقونه في هاون ويخلطونه فيغدو كالعجين ، ويقرّصونه ، ويتخذون منه ما يشبه الخبز . وقد ذكر هيرودوتس في كتابه ١ : ٢٠٠ ان البربيس ، (البز) ، والبني ، والجرّيث ، والمرينة ، والسلور تنمو نمواً بديعاً وتعظم في أجسامها في تلك المياه الهادئة ؛ ويرى ضرب غريب من الطريخ لا يقيم في الماء على مألوف عادته ، لكن الموان القلق لا يخيفه البتة ، فهو يقع على

(٢) معنى البس بفتح الـ ... الهر الاهلي والواحدة بس ... وذلك ان البز ... يشبه ... كالبس وهو الزوون عند عامة ... ولا يخفى ... الاسماك المعروفة — والبز منها — يسمى الافرنج cat fish ... في السمك ... رأي الدكتور امين المعلوف ، راجع كتابه معجم الحيوان ... ص ٢٧ .

الجروف ، ويتوقل الاشجار بلا صعوبة تذكر ، وينسى نفسه بطيبة خاطر ، متلذذاً الغرين الذي يغادره الجزر ، ويتمرّغ فيه متشمساً هناك ، اللهمّ إلاّ اذا أخذ طائر يدنو منه كثيراً فحينئذ يتوغل فيه بلمح البصر » (عن ماسبرو في كتابه التاريخ القديم ١ : ٥٥٦) . وقد ظنَّ بعضهم ان سمكة طوبيا كانت تمساحاً ، فردَّ عليهم آخرون انه لا يحتمل انه يهجم على الانسان . (راجع تريسترام : كتاب التاريخ الطبيعي للتوراة ص ٢٩٣) والنسخة السينائية والولغاتة تتكلمان على سمكة كبيرة والنص اليوناني السكستيني يقول فقط : «سمكة هجمت وقد خرجت من النهر » .

ولا يبعد أن تكون هذه السمكة غير موصوفة وصفاً كافياً حتى قيل انها قفزت من النهر هي الطريفلا ، ولا جرم انها كانت على كل حال ضعيفة ضعفاً مذكوراً ، حتى تمكن الصبيّ طوبيا من جرها اليه من خياشيمها ، وكانت في الوقت عينه كبيرة كبراً كافياً ، ليتخذ منها زاداً يكتفي به مسافران ذاهبان الى الريّ » اه .

٧ — ﴿أقوال بعض العراقيين فيه﴾ سألت صديقي الجليل العلامة صاحب المعالي الدكتور حنا بك خياط عنه ، فقال لي ما ملخصه :

اني جولت في العراق من شماليه الى جنوبيه ، ومن شرقيه الى غربيه ، فاتفق لي أني رأيت مراراً البز ، بل مراراً لا تحصى حينما كنت أذهب الى قضاء شؤوني في ارجاء الزابين ، ولا سيما في أنحاء الزاب الأصغر ، حيث يرى أكبر البزوز (جمع بز) ، فرأيته في الماء وفي خارج الماء ، ورأيت صغيره وكبيره ، ورأيته حياً وميتاً . ولما يكون في بطن الماء ، كنت أراه يخرج منه ، ثم يلقي نفسه فيه ، كأنه يحاول أن يتنفس ، كما يفعل البال في البحر ، أو كأنه يحاول الهجوم على صغار السمك التي يراها تعوم على وجه الماء لانه يلتهمها ويأكل أيضاً الحُيَيْوِينات التي ترى في الماء ويبتلع الخضرة والعشب والطحلب وما في نظائرها التي يراها على الساحل ، وكذلك ما يرى فيه من فضلات الطعام وما ينبذ في الماء من النفايات والأقذار المصوبة .

وأكثر وجود البز الضخم في اغوار الزابين بالزاب : الزاب الأعلى والزاب الأسفل (ويقال لها الزاب الأكبر والزاب الأصغر) وسبب ضخامته هناك كثرة الحُفَر المائية التي ترى هناك ويأنس إليها لابتعاده فيها عن مخاطر المركبين (صيادي السمك) ، وتقصيهم ما يراه فيها من زاده . وثمّ سبب آخر هو : إن ماء الزابين لا يجري بشدة وعنف ، إنما يجري بتؤدة وهوينى ، فلا يندفع هو به مكرهاً ، بل يخلد في مأمنه متلذذاً متنعماً معمّراً

ومما يأنس به من المواطن ، ما كان منها منبسطاً كالسواعد والنهيرات الضعيفة التي تفرغ مياهها في دجلة وتَـتَـنَـوَّهَـنـيـسـاً في الزابين ، حيث تكثر الخضرة والفضلات والسُّمَيْكَات .

انتهى هنا كلام الدكتور العلامة الموصلي ولادة، والمقيم اليوم في بغداد .

ثم سألت موصليًّا آخر وهو ابني بالروح ، واسمه كوركيس عواد : أتعرف البز وهل رأيت واحداً كبيراً من هذا الجنس ، فقال :

« كنت في صيف سنة ١٩٣٥ عائداً من بغداد إلى مسقط رأسي الحدباء ، (أي الموصل) فوصلت إلى آلتون كُبْري ، فقعدت في قهوة فيها ، وآلتون كبري قرية بين بغداد والموصل وكان الوقت قبيل الظهر ، فاذا بسيارة من سيارات (فورد) الضخمة قدمت ووقفت أمام القهوة ، فنهض أكثر من فيها ليشاهد ما كانت تحمله ، فاذا سمكة ضخمة هي (بزّ) ، وقد أُسطيدت بإزاب الأسفل ، وكان جسمها قد أحاط بالسيارة كلها حتى بلغ رأسها الآلة المحركة ، وذنبها جاورها منها ، بعد إن التف على السيارة التفافاً تامًّا . فعجب المشاهدون مما رأوا .

وكان طولها ثلاثة أمتار ، وزنتها نحواً من مائتي كيلوغرام ، وأكد جميعهم إنهم لم يروا بزًّا هائل العظم مثل هذا الذي رأوه . » اه

وكتبت رسالة إلى الصديق الحميم في الموصل ، الدكتور داود بك الجلبي وسألته عدة أسئلة عن البز ، واسمه في العلم أو في لغة أفرنجية ، فأجابني بهذه الكلمة التي أعيد نقلها للقراء ، للاستفادة منها وهذا نصها بتاريخ ٢٢ / ١١ / ١٩٤٤ :

« تأخرت قليلاً في الاجابة على كتابكم ، وسبب ذلك بحثي عن اسم البز في إحدى اللغات الافرنجية ، أو بلسان العلم ، ولكن يا للأسف ، فقد خاب سعيي ، ولم أعثر على هذا الاسم في ما عندي من الكتب ، واستعنت ببعض أناس هنا لهم إطلاع على الانجليزية فلم يفيدوني شيئاً ، وأظن السبب هو عدم درس علماء الحيوان [1] لأسماك العراق حتى الآن . فأرجو المعذرة ، وأعدكم بأني إذا عثرت يوماً ما على اسم هذا الحيوان : أخبركم به »

أثناء بحثي عن البز ، تحققت أن المرحوم أمين باشا المعلوف كان واهماً حين سمى في معجمه (معجم الحيوان) البز باسم [illegible] ، فان هذه السمكة ليس فيها من أوصاف البز شيء ، وأظن أن وهم

. . . .

(١) الذي أعلمه أن [illegible] عالماً روسياً درس دروساً حسنة أسماك الفراتين منذ نحو [illegible] ولا يزال يدرس ، وهو يكتب أبحاثه بالعربية واللاتينية ، لكنه لم ينشر منها شيئاً بالطبع . وقد بحثت عن محل سكناه لأني أعتقد أنه يومئذ [illegible] واسمه [illegible] ، فقيل [illegible] فقدي من اسم البز في نحو أواسط كانون الأول ديسمبر سنة ١٩٤٤ .

أمين باشا هو الذي جعل عبد العزيز مهدي وبشير الوس يغلطان الغلط عينه ، فان هذين الشابين كتاباً في علم الحيوان يدرّس في المدارس الاعدادية (في العراق) وقد وضعوا صورة سمكة لها زوائد عند فمها طويلة كالسبال ، وكتبا تحتها انها البز ، وان اسمها الانكليزي (١) « cat-fish » اه

ثم كتبت اليه ثانية لاقول له ان البز مقطوع من اللاتينية القديمة Barbus ، وذلك لان الرومان ملكوا ديار العراق ، وتركوا فيها من لغتهم ألفاظاً كثيرة لا تنكر .

فكتب الي رداً بتاريخ ٨/١٢/١٩٤٤ ، ما هذا نصاب عبارته : «لا نستطيع أن نقول ان البز والسمك المعروف بالباربو Barbeau هما واحد . ولو صرفنا النظر عن الفرق العظيم بين جسامتيهما ، لم يسم البربو بهذا الاسم الا لان له عثنونين في كل جانب من خطمه يشبهان اللحية ، وليس للبز عثنانين ، انما له عند صامغيه نتوء كالثؤلول (٢) كما في السمكة المسماة بالفرنسية (٣) Tanche ولا أدعي ان البز هو نوع كبير من التنش ، ولكني أقول انه قريب منه جداً . وكلاهما من الصنف المعروف عند علماء الحيوان بالسبرنيدة Cyprinidés . هذا ما لا شك فيه » اه كلامه .

وفي رسالتي المذكورة ، ذكرت له ان السمكة التي تعرضت لطوبيا ربما كانت كوسجاً . وهذه السمكة معروفة اسماً وجسماً في نهر بغداد (أي دجلة) والكوسج هو القرش عند غير العراقيين ، وهو كثيراً ما يتعرض لمن يسبح فيه في فصل الصيف ، فأجابني بما يأتي : لم يذكر أحد قطعاً ان الكوسج قد يصل الى نواحي الموصل (٤) . أما حكاية طوبيا والحوت ، فانظر اليها نظر خرافة لا غير (٥) . قيل في هذه الحكاية : إن طوبيا الصغير ،

---

(١) الذي نقوله نحن ان امين باشا المعلوف لم يخطئ بذكر الاسم العام الانكليزي (كات فش) الذي معناه السمك السنور ، وهو اسم عام يشمل سمكاً عديداً يمتاز بما يشبه شوارب القط عند ملاغيه والبز شيء يشبه ذلك ويصدق عليه هذا الاسم العام لكن الخاص غير ذلك .

(٢) اي فأقول ان البز مقطوع من باربو الفرنسية ، انما هو مقطوع من (بربوس) اللاتينية ، وبربوس اسم عام يشمل سمكاً عديداً تختلف اسماؤه في جميع اللغات باختلاف النوع ويزاد على اسم جنسه الذي يميز بعضه عن بعض .

(٣) اسم هذا السمك الفرنسي ... بالعربية ... ونون ... ورأي في الآخر .

(٤) ذكر لي ... ان ... كان ... وكان يعنى لعيني وقته في صيد السمك في دجلة الموصل ، واتفق له ان صاد ... كوسجاً . فهذا كلام لا يحقق وكلام الدكتور الجلبي رحمه الله

(٥) ... الخرافة ... لا ريب فيه .

أو طوبيت ، بعد أن سار يوماً كاملاً مع دليله الذي هو في الحقيقة روفائيل الملك وصل شاطىء دجلة ، والحال ان الذي يقصد بلاد ماري من نينوى ، يتجه شرقاً فيبتعد عن دجلة ، واذا فرضنا أنهم قصدوا بدجلة أحد روافده ، أي الزاب ، فلم يذكر أحد أن فيه الكوسج ، واذا فرضنا من غير دليل ان الكوسج كان يعيش في دجلة أو في الزاب قبل ثلاثة آلاف سنة كيف استطاع طوبيت أن يمسك هذا الحوت الضاري الفتاك ويسحبه ويخرجه الى الساحل دون أن يؤذيه . وهل يصدق أن مرارة الكوسج أو البز تشفي البياض في العين وتقلعه [1] ومتى كانت الملائكة أدلة للبشر ؟[2] هذا كله يؤدي بنا حتماً أن لا نعتمد على خرافة طوبيا ونحاول أن نستخرج منها حقائق .

وأما البز ، فلا يهاجم البشر ، وغاية ما يمكنني أن أقوله : إن البز من الاسماك الكاملة العظام Téles toéens من صنف السبرنيدة Cyprinidés وان أسماك العراق لم تتعرض الى

---

(١) يقال طوبيا الصغير فهو بالنسبة الى والده الذي يسمى طوبيا الكبير أو طوبيا الاب والوالد ، وكان صبياً نشيطاً وقوياً والدليل انه مشى أربعاً وعشرين ساعة على قدميه ولم يذلك من التعب

وأما ان الملائكة ظهرت للبشر وساعدتهم في حاجاتهم فهذا معتقد اليهود والنصارى والمسلمين كما يرى ذلك مدوناً في كتب معتقدهم .

وأما الاتجاه الى بلد من أي بلدان كانت فقد يكون بطرق شتى وعلى ذلك مثل الفرنسيين ما معناه كل الطرق تؤدي الى رومة وهو قولهم Tous les chemins mènent à Rome ومنهم من يقول : كل طريق يؤدي الى رومة Tout chemin mène à Rome

المراد بدجلة في سفر طوبيا نهر السلام . النهر الكبير وقد رأينا في كل سنة رجالاً وحيوانات ضخمة يتعرض لها الكوسج وقد رأى كاتب هذه السطور كواسج في أعوام مختلفة بحيث لا يحتمل الامر أدنى ريب . وأما انه وجد أو يوجد في أنحاء الموصل ، فهذا ما أكده أحد الثقات تأكيداً لا خلاف فيه . واذا كان لم يذكر أحد من الكتبة هذه الحقيقة الصادقة فليس في هذا ما ينفي الواقع ولا صدق الرواية : فأرباب اليراع لا يذكرون كل ما يقع من الحوادث والانباء . فالكوسج عاش ويعيش وسوف يعيش في دجلة ما شاء الله ربك الخالق .

وأما ان الشاب طوبيا أخرجه من النهر فنجيبه فقد كان قوياً استطاع أن يسير يوماً كاملاً بدون تعب وهذا يدل على أسر أعضائه وشدة قوته . ولقد كان الشاب ازاء عواد اجتذب مراراً الى ساحل النهر الكواسج التي كان يصطادها في دجلة الموصل

ما مداواة العين بالمرارة فالواقع أنيت الحادث فلا حدس ولا تحكك بعد الواقع

(٢) درست درساً علمياً فلك لم تظفر بذلك الطب إلا حديثاً

الناشئة ، والقرائح الحية الوثابة . وسبب آخر كان من بين هذه العوائق التي حدّت من نهوض الأدب ورقيه . هذا السبب هو الذوق الخاص . فهنالك قوالب خاصة للتعبير تصب فيها المعاني بأساليب قياسية وطرق مرسومة، وهي تنكر الحماسية وتخرجها من حساب الادب، ولا تتناول العاطفة أو الميول النفسية الا لموضوعات علمية مجردة للدرس أو للتحليل . وكانت اللغة من ناحية أخرى تعبر تعبيراً صادقاً عن الارستوقراطية السائدة أو هي كانت صورة واضحة للملوكية. فن الالفاظ الشريف والنبيل والعظيم والعامي والامي والحقير. ومن الكلمات ما كان يقتصر استعماله على الاغراض الخاصة بالطبقة المحافظة الارستوقراطية . ومثل هذه اللغة بطبيعة الحال جافة عاجزة عن أداء الانفعالات النفسية خالية من الصور الشعرية العاطفية . ولسنا ننسى انها بجانب ذلك كانت لغة العقل المجرد والفلسفة التجريدية بوجه عام . وان كانت قد عجزت عن أن تكون لغة الخيال الجامح والاحساس المرهف والعاطفة المشبوبة .

في نهاية القرن الثامن عشر برزت في الأدب، وشاعت في الحياة الأدبية، ظاهرة قوية تعد الى حدّ ما نقطة تحوّل في تيار التفكير الأدبي . تلك الظاهرة هي تغليب الشعور والعاطفة على الطابع الأدبي وإشاعة « الحماسية » في الاسلوب . ولقد تقدم ذلك الاسلوب تقدماً مخترقاً بجانب تلك الآراء التي كانت تصدر عن العقل المجرد . ومن روّاد هذه الحركة الجديدة في التفكير الأدبي جان جاك روسو وشاتو بريان . فقصة «هلويز الجديدة » مثلاً لروسو هي قصة ذلك الحب الذي نشأ ونما بين العواطف الجامحة، والاندفاعات القلبية . ولقد سادت تلك الظاهرة الجو الأدبي كرد فعل . لأن الاندفاع في تيار الحركة العقلية كان قد جدد مذاهب التفكير في دائرة المناقشات والمحاورات الفلسفية والمنطقية ، التي كانت الى حدّ ما تخدع بظاهرها البرّاق ولكنها لم تكن تترك في كل نفس غاية خاصة ترمي اليها أو غرض تقف عنده . وطبيعة تلك المناقشات والمحاورات الفلسفية أو المنطقية أنها مجال للتطور، بل أن الجدل فيها خاضع لمدى تقدم العقل ورقيه . فكلما زادت المعارف العلمية واتسعت رقعتها ، اتجهت الفلسفة وجهات تقتضيها طبيعة التقدم العلمي والرقي العقلي . ولقد أدّت المسائل الفلسفية إذ ذاك الى قلق فكري، وغدا المثقفون والمشتغلون بالأدب يتساءلون أين المستقر ؟ قال المثقفون والمشتغلون بالحياة العقلية وبالأدب على وجه خاص إن التفكير في المسائل العلمية أو الفلسفة المجردة ، لا يمثل الحياة الفكرية بأوسع معانيها وعمدوا بعد هذا الى خلق ألوان جديدة في الأدب تمثل ميول العصر وأخلاقه ونزعاته وعرف عندئذ الادب الوجداني ، وهو الادب الذي شاع كثيراً في القصص . فأدب القرن الثامن عشر كان يتجه اتجاهاً وجدانياً عندنا رومانتيا إذا صح هذا التعبير، بينما اتجه أدب القرن التاسع عشر مثلاً اتجاهاً

آخر، فقد تأثر بالمبادىء المادية التي ظهرت في ذلك العصر، وتجد انه تخطى الوجدانيات الى الواقع — فالرومانتزم في جملته وتفصيله هو الادب الغنائي والادب الغنائي يعتمد على النفس وما يعرض لها من العواطف والميول والخواطر ، وقيمة هذا الادب في تغليب « الذاتية » ورجوع كل المطالب الى « ذات » الانسان . وروسو هو الرائد الاول لهذا الادب فهو بين غير شك مصدر تلك الحساسية التي شملت فترة من الزمن بلغت فيه العاطفة مبلغاً له تأثيره وقيمته ، بل لقد كانت « الرومانسية » ثورة العاطفة على العقل كما كانت الى حدّ ما ثورة الشخصية على القواعد والتقاليد .

الفريد دي موسيه إذن كان كما قلت يقف في الجيل الثاني للحركة الرومانسية ، فقد كان يقل أهمية عن لامرتين والفريد دي فيني وهوجو . كان يقل عنهم شأناً في سعة الخيال وقوة التفكير ، ولكنه كان يفوقهم حساسية وشعوراً وذكاء ، بل كان يفوقهم اخلاصاً وبداهة "Spontaniety"

واذا كان البحث يتعلق بحماسته فهو جدير بادماجه في كتّاب وشعراء القرن التاسع عشر، فقد كان حاد المزاج حزيناً ، شهوانياً ، يتأثر تأثراً عميقاً ، كما كان في ساعات هدوئه ، باسماً لبقاً منتشياً ، وبخاصة إذا بدأ يروي القصص . وكان من أكبر قصاص القرن الثامن عشر من حيث قوة البداهة والفكاهة . كان الفريد دي موسيه عارفاً المعرفة كلها بأدب شاكسبير وبايرون كما كان عارفاً أيضاً بالأدب الايطالي . وكان يكثر من تقليد الايطاليين ، كما كان يحتال على تقليد شاكسبير وبايرون . ولكنه تقليد مشبع بشيء من التصرف والاصالة . والقصائد التي انبعثت منه عن حب عنيف هي مثل بديع للألم العميق . وتلك عبقرية لا تستطيع بلوغ قمة الفن ، أو النهوض بخصائصها إلى مثالها الادبي الأعلى إلاّ إذا رضخت لشبه صراع أدبي . هي يعز عليها السكون أو التفكير الهادىء ، ترتجف لحماساً — والفن ارتجاف — فهي إذن تتطلب الاحساس صارخة وتستعيد نوبات شقائها ، شاعرة بلذة غريبة في تعذيب نفسها مختارة .. ؟ ! وهكذا كان دي موسيه يستمد وحي شعره من ألم قلبه ، وينشد روائع شعره في تلك الليالي التي تد يجري فيها ، أو قد يتحقق فيها أن عشيقته قد خدعته مع أحب صديق إليه . كان يحب الكاتبة الأديبة « جورج صاند » وكانت تخونه فلم يكن له ملجأ يلجأ إليه سوى قلبه يأتي به مدوّناً على القرطاس فاجعة حياته وجنة هواه .

عرف الفريد دي موسيه جورج صاند في ربيع عام ١٨٣٣ ولقد كان التعارف بينهما قد تمّ في مأدبة أقامها صاحب مجلة العالمين Revue des Deux Mondes جلس إليها ليتحدث دأب كل شاب مع شابة في مثل هذه المآدب . وكان الناقد الكبير سانت بيف صديقاً للطرفين مطلعاً على أسرارهما . وكان « سانت بيف » قد رغب الى صاند أن يعرفها بالفريد دي موسيه .

فأبت لما اشتهر به من اسراف في اللهو والمجون . أما بعد المأدبة فقد عرف كل صاحبه ورأى كل في الآخر الجمال الذي حلم به ، رأى موسيه في صديقته الجمال الذي تمثله وتغنى به في شعره ، رأى عينين سوداوين ، وبشرة سمراء ، وجسماً قصيراً خصباً . ورأت جورج صاند فيه شاباً وسيماً ، لبقاً محدثاً ، فكهاً ، كان دي موسيه إذ ذاك في الثالثة والعشرين وكانت هي تكبره بسبع سنوات . كتب موسيه اليها مرة يقول « ان الاجيال القادمة ستردد اسمينا وتمزجهما كما تمزج أسمي عشيقين خالدين كروميو وجوليت وهيلوز وأبيلار » .

***

عرف هذا الحب في الأجواء الادبية في باريس وغير باريس فقد عرف أيضاً في ايطاليا عندما زار دي موسيه وصاند ايطاليا عام ١٨٣٣ . تحدث عن هذا الحب الادباء والشعراء كما نذكره نحن اليوم ونتحدث عنه . ولعل سبب ذلك شخصية العاشقين وعلو مقامهما في الأدب والأثر العميق الذي تركه هذا الحب في آثارهما الادبية ومحاولة كل واحد منهما انصاف نفسه. أما إذا تجاوزنا هذا جميعه . فلا يخرج حبهما عن حادث غرامي عادي مما نشاهده كل يوم على مسرح الحياة . فقد نحب ويخوننا الحب ، ويهجرنا ليرتمي في أحضان حبيب جديد . وقد نتعذب ونبكي ، وقد نصرخ ونصخب . فيظل كل هذا مطوياً في الصدور والقلوب، ذلك لأنه ليس كل واحد ، جورج صاند أو الفريد دي موسيه، فيرسل تلك الأنات الطويلة وتنبعث من أعماق قلبه تلك الصرخات المدوية ، في شعر رائع ، ونثر جميل ، هما من الآثار الانسانية الباقية على وجه الدهر .

قد يكون من الخير أن نحلل خلق موسيه وخلق صاند . فقد كتب بلزاك عن جورج صاند يقول : كنت أزورها وأتبادل وإياها الآراء في ساندو (وساندو هذا هو الكاتب جول ساندو أول عشاق صاند وأستاذها في الادب) . ولقد كانت أكثر تعاسة مع موسيه منها معه ، وهي الآن في عزلتها تحكم على الزواج والحب حكماً قاسياً لأنها لم تجد فيهما غير ضيعة الآمال وخيبة الرجاء . الرجل الذي تحلم به نادر الوجود . وسيظل نادراً طالما حافظت على خشونة طبعها الذي يجعلها لا تجد بسهولة من يحبها بصدق ووفاء . لها نفسية الفتيان ونفسية الفنانين ، ولها نفس أيضاً كريمة عفيفة . شكلها شكل رجل . هذا هو إزاء قولنا انها ليست امرأة بحيث لم أشعر وأنا أتحدث إليها في الايام الثلاثة التي قضيتها معها بأني مضطر الى التحدث إليها في رقة ولين كما نتحدث عادة إلى السيدات .. أجل كنت أتحدث اليها كأني أتحدث الى رفيق ، وهي ذات فضائل باهرة ، ولكن المجتمع كان ينظر الى صاند من وجهة معكوسة .

« إنها من حيث الأخلاق مثل شاب في العشرين من عمره، فهي عفيفة حريصة، وهي فتانة في مظهرها وكانت تدخن كثيراً وترغب في الظهور بمظاهر الامارة والوجاهة . وأخيراً هي رجل لأنها تريد أن تكونه، ولأنها خلعت عن نفسها شخصية المرأة فزالت عنها أنوثتها فالمرأة جذابة أما هي فنفرة !

« ولقد قال عنها » الكاتب الكبير شارل موراس : في كتابه « عشاق البندقية » دي موسيه وصاند [illegible] لا سبيل الى انكار مقام صاند العالي بين كتاب عصرها. وليس من الصعب على الأجيال المقبلة أن تنتزع من مؤلفاتها الكثيرة صفحات جميلة بارعة . كانت ذات نفس كبيرة كريمة مضيافة، أي انها كانت لا تستطيع الاحساس بما يسمونه العامة الحب. وهناك فئتان من الناس تستطيعان هذا الاحساس بالحب . إما لنضوب العاطفة وإما لفيضها . عاشت حياتها كلها ممتزجة كل ما حولها باحساس قلبها . أو قل انها أحبت العالم وشغفت به . كانت تعشق كما لو كانت تتمتع ببعض مناظر الطبيعة من كل منظر طريف يستهوي العقل والقلب . لذلك لم تجد في الحب المتعة واللذة . أما العشاق فكانوا يبهتون أمام نفسها الهادئة التي كانت تعني بسعادتهم . ولقد أجمع عارفوها على أنها كانت حمقاء وغير جذابة في حديثها وانها كانت تظل صامتة . أما العبقرية فقد كانت تتجلى في عينيها الجميلتين اللتين احتفظتا بسحرها حتى في أطوار الشيخوخة .

أما الفريد، دي موسيه فقد قال عنه شارل موراس، انه كان ابن جيله وعصره : نشأ عصبي المزاج، حاد الطبع، الى حد يقرب من الجنون، وشب مكبراً يدمن الشراب وعابثاً يلهو بالشباب والنساء، فلا يجد فيهن غير أداة متعة ولذة . ومقامراً يلعب حتى آخر درهم وحتى يخرج خالي الوفاض. وكان الى شاعريته العظيمة نقاداً بصيراً بمحاسن الحياة وأنواع الجمال وروائع الادب. كان يجمع الاضداد في نفسه. فبينما هو طيب القلب رقيق الحاشية محب للناس متواضع النفس على بساطة طبع وسلامة نية، اذا هو وكأن به شيطاناً يجعله شرساً متكبراً قاسياً كثير الظنون كثير الصخب ذا أثرة وعنت . أضف الى هذا تلك اللذة الكبيرة التي كان يجدها في الألم والحزن . ولقد جرى على نحو غريب هو ألا يعشق رغبة في الحب، بل رغبة في الألم والوجيعة يبحث عنهما فلا يقر قراره إلا اذا ظفر بهما . ولقد جرى له أن صادف في حياته حباً هادئاً مطمئناً ؛ فما لبث أن مل قلبه فصدّه عنه.

***

وابدع وصف لموسيه في لغتنا العربية ما قاله عنه الشاعر الكبير خليل مطران من قصيدة له :

عاش هذا الفتى محبًّا شقيًّا ... وقضى نحبه محبًّا هقيًّا
وبكى دمع عينه في سطور ... جملته على المدى مبكيًّا
منشد للغرام لم ينشد إلاّ ... كان إنشاده نواحاً شجيًّا
شاعر كان عمره بيت تشبيب ... وكان الأنين فيه الرويّا
ان في نظمه لحناً لطيفاً ... باقياً منه في السطور خفيًّا

كانت فترة التعارف والصلة بين موسيه وساند قصيرة لأن ساند كتبت في صيف هذا العام الى « سانت بيف » تقول له ان الحب قد جمع بينها وبين موسيه وانه في حل بأن يذيع الخبر الى الاصدقاء . وما لبث موسيه أن انتقل الى منزل ساند الذي كان في شارع « رين » نمرة ١٩ فأقام معها . هذا في أغسطس عام ١٨٣٣ . ثم انتقلوا الى ضاحية « فونتنبلو » فأقاما خمسة عشر يوماً يقال أن اثناءها ابتدأ الخلاف بين العشيقين . على أن الرّواة يختلفون في هل كان بدء هذا الخصام في تلك الضاحية ، أم في باريس . وهم يذكرون أن موسيه رأى في أحد الايام وهو جالس في الغابة المشهورة . شبحاً مر أمامه فظنه صورته في طور الشيخوخة . وقد نال منه الادمان والعبث والدعر فاضطرب وانطرح أرضاً كأن به مسًّا . وقد استوحى موسيه بعد هذه الرؤيا قصيدته (ليلة ديسمبر) أما الخصام فقد دبّ بين العاشقين لاختلاف الرأي والعقيدة والاخلاق . فلقد كانت ساند ثائرة على الأوضاع الاجتماعية دؤوبة على العمل في جد واجتهاد ، بينما كان موسيه محافظاً محترماً للتقاليد محبًّا للاناقة والظهور كسولاً قليل الانتاج أضف الى هذا اختلاف تباين السن إذ كانت تكبره بست سنوات ولم يلبث الخلف أن تعدى حدود ما تثيره الحياة بين أديبين مختلفين ذوقاً وأخلاقاً الى ماضي ساند . كان موسيه في أوقات ثورته ينعي عليها زواجها ويذكرها بعشاقها الذين أحبتهم قبله . ويعيرها بحياتها الخاصة ويشتد في تعنيفها ثم تخمد ثورته وتهدأ ، ويثوب الى رشده . فاذا ما انتهت تلك الثورة عاد اليها يسترضيها ويستغفرها فترضى عنه وتغفر له . ولما ضاقت بهما الحياة بباريس وبـ أصدقائهما الذين كانوا يعيدون الى ذهن موسيه ماضي عشيقته استقر رأيهما على السفر الى البندقية لعلّ الابتعاد عن الوسط الباريسي ينسيهما شقاءهما ، ويفسح الحب الا أوسع . وذهبت ساند الى والدة موسيه فاستأذنتها في سفر ابنها واعدة أن تعنى به عناية الأم بابنها وهكذا كان .

سافرا الى البندقية في احدى ليالي ديسمبر المظلمة وما كادا يصلان اليها حتى أصيبت ساند بمرض ألزمها الفراش خمسة عشر يوماً فكان سبباً في اثارة الخصام بينهما من جديد .

كان موسيه يقضي النهار وشطراً من الليل في زيارة المدينة والسهر في حاناتها، ومغازلة نسائها الجميلات فاذا عاد في ساعة متأخرة أمطر صاند وابلاً من اللوم والعتاب ذا كرا لها انه لم يأتِ الى البندقية ليحيي بمرض بل ليتمتع بما في المدينة من جمال ولذة وانتهى بأن أوصد الباب الذي يصل غرفتيهما.

أبلت صاند من مرضها ولم تكد تسترد صحتها حتى مرض موسيه واشتدت عليه الوطأة فلجأت صاند الى الطبيب الذي عني بها في مرضها. وكان شديد الحياء يكاد يجهل الفرنسية وكان يقضي نهاره ملازماً صاند، وكانت الاديبة الفنانة قد تاقت نفسها الى تذوّق لذة الحب في البندقية مدينة اللذة والحب فلم تجد لديها غير هذا الطبيب الشاب لأنها كانت لا تغادر المنزل الذي كانت تسكنه لعناية بالمريض.

هذه الاديبة الفنانة كانت إذن تعيش بين رجلين، ويتجاذب قلبها عاملان، فالواجب يدعوها الى العناية بالمريض، وحب اللذة والاغراء يدفعانها الى ذراعي الطبيب. ولقد بحث الكتّاب طويلاً في سر هذه الليالي الطويلة. قالوا ان موسيه كان اذا ثاب اليه رشده وفارقته الحمى وجد صاند والطبيب «باجيلو» يتبادلان القبل الخفية الى جانب سريره ظنًّا منهما انه نائم فهل كانت هذه الرؤية حقيقة أم هذيان محموم؟ على انهما اذا لم يتبادلا القبل أمام موسيه فانهما تساقيا كؤوس الغرام صافية بعيدين عنه.

***

شفي موسيه من مرضه. فعاودته وساوسه وعاد الى خصامه، ويروى انه حاول مرّة قتل صاند وانه طلب باجيلو للمبارزة، وأن صاند حاولت الانتحار.

وقيل لموسيه ان به مسًّا لادمانه الشراب وأسرافه في معاشرة بنات الهوى، فرضي بهذا التفسير لمزاجه العصبي، وعدّ نفسه مسئولاً عن الحياة البائسة التي عاشتها صاند وصديقه الطبيب، فبارك حبهما، وقفل راجعاً الى باريس وهو قرير البال مرتاح الضمير، بأنه قدّم نفسه ضحية على مذهب الحب.

عاد الى فرنسا في مارس عام ١٨٣٤ طاوياً في صدره رفيقين غريبين «حزن وفرح» لا آخر لهما. أما الحزن فلأنه فارق عشيقته التي لا يزال يحبها. وأما الفرح فلأنه استطاع أن يطمئن الى سعادتها في كنف عاشق جدير بها.

جرت القطيعة بين موسيه وصاند ولكنهما ظلا يتبادلان الرسائل ولقد وصلت هذه

الخطابات بعضها كما كتبت ، وبعضها منقح بتصحيح لأن صاند طلبت بعد هذه الحوادث التي تروبها الى موسيه أن يبعث خطاباتها ففعل . فغيرت فيها ما غيرت بينما تركت رسائله كما كتبها . ظلّ يتراسلان حتى عادت صاند الى باريس في شهر أغسطس من ذلك العام وقد جاء معها باجيلو . وشاء موسيه أن يلتقي بها بعد أن راجعته ذكريات حبه القديم فقبلت جورج صاند . ووافته في الموعد المضروب . وعلم باجيلو بهذا فرأى نفسه غريباً بين هؤلاء الأدباء والفنانين فتركهما وشأنهما وقفل راجعاً الى بلده ، واتصل العاشقان من جديد ولكن هذا الصلح لم يدم طويلاً . فقد ظلّ بين نفور ووئام، وصلح وخصام، ولقد حل الحب صاند مرة الى أن تقص شعرها وتبعثه الى موسيه وفاءً لحبها . ولقد كان أصدقاؤها وبخاصة سانت بيف وفرنسوا بوالوه موضع سرها : ووصل الصلحُ بينهما . ولكن القلوب اذا تنافر ودها كما قال الشاعر العربي ... وفي مارس ١٨٣٥ هجرت صاند موسيه وسافرت الى نوهان .

***

كان هذا نهاية الحب . وحوادثه المزعجة المثيرة وبدأ بعد ذلك عهد آخر هو عهد الأدب والكتابة . كان موسيه قد وعد صاند أنه لن يموت قبل أن يؤلف عنها كتاباً كما كان يقول لها انه سوف لا ينبت على قبرها غير الزنبق الأبيض الطاهر لذلك كتب موسيه بعد هذه الحوادث قصته المشهورة اعترافات فتى من فتيان العصر Confession d'un Jeune Homme du Siècle . وقد مثل صاند في شخصيتين مختلفتين شخصية العشيقة المستهترة الخائنة وشخصية الصديقة الوفية الطاهرة الذيل الأمينة العهد . فكتبت صاند ترد على قصته بأخرى بعنوان Elle et Lui ثم كتب بعث آخر عنوانه Lui et Elle ذكر فيه «دي موسيه» باعتباره الشخص الثالث في قصة هذا الحب . ونظم موسيه أروع قصائده في ذكرى صاند . فالليالي — اكتوبر — ديسمبر والذكرى وخطاب الى لامرتين والى أخي بمناسبة عودته من ايطاليا — من أجمل الشعر الذي نظمها موسيه في حبه كما كتبت صاند في ذلك الحب غير القصة التي ذكرنا « ليليا » وخطابات مسافر .

***

أما قصيدة « ليلة مايو » فقد نظمها موسيه يوم ٦ مايو ١٨٣٥ في المنزل الذي كان يسكنه مع أمه وأخته .

كان موسيه قد تعشى يوم ٦ مايو في حديقة التويلري وعاد الى منزله في المساء، وقد انتشى

من عبق الأزهار وجمال الربيع وما يوحيان للنفوس الشاعرة من آمال جديدة . وكان يردد الأبيات الأربعة الأولى من القصيدة وهي التي تخاطب بها إلهة الشعر الشاعر « أيها الشاعر خذ قيثارتك وهيء قبلة ... » فدخل غرفته وجلس أمام مكتبه بعد أن أنار اثنتي عشرة شمعة ، وأخذ ينظم قصيدته فما أتى الصباح حتى كان قد نظم المائتي بيت من الشعر التي تألفت منها القصيدة .

التفسير السيكولوجي

ان قصة ديموسيه وصاند تمثل الصراع الحديث بين المرأة والمجتمع . فديموسيه كان يلهو بصاند، ويرى فيما بينه وبين نفسه انها طفلة غير مسؤولة . هو كان يلهو بها ويكاد لا يعترف بوجودها أو بحقها في الحياة الزوجية أو في طبيعة مسؤوليتها في هذه الحياة . فقد كان يهملها ليرى ويسعد بالنساء الجميلات في البندقية. وكان إذا فرغ من لهوه عاد الى منزله لينكر وجود صاند وهذه النظرة المهينة من ديموسيه لصاند فيها الحرج كل الحرج لها ولكرامتها كامرأة . وهذه النظرة هي التي حفزتها الى الهروب من الحياة المهينة . فدفعتها الى حب «باجيلو» وهي تعلم انها زوج لديموسيه . هي تريد أن تنكر ذلك الواقع الذي يؤلمها والذي يجعل حياتها ملتوية معقدة ، وهي تحلم بحياة جديدة ، فاذا ما وقفت الى تحقيق هذا الحلم فقد خرجت من نطاق الزوجية الى حيث الحياة الكريمة التي تفكر فيها أليست « صاند » هذه تمثل تلك المرأة التي خلقها « إبسن » في درامته « بيت الدمية » . أليست هي المرأة التي تفرض لها وجوداً معيناً في الحياة.بل أليست هي المرأة التي تريد أن تثبت شخصيتها وترى « أن الشخصية » شيء ثمين في المجتمع الانساني ينبغي أن تحصل عليه المرأة مهما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؟

حليم متري

المراجع

(١) French Literature by Saintsbury

(٢) Edward Dowden a history of French Literature

(٣) Auteurs Choisis de Lettres par Emile Faguet

(٤) الشعر قصص الحب التاريخية لسلامة موسى

(٥) مختار — مقال الشعر شيبوب

مكافحة الامية

ونشر الثقافة الشعبية

القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤م . الصادر لمكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية خير قانون صدر في مصر منذ نشأتها للآن . إنه جدير بأن يسمى قانون إحياء الأمة المصرية وإحلالها المكان اللائق بها بين أرقى الأمم ، ففي احيائه إحياؤها ورفعتها ، وفي اماتته إماتتها وخفضها :

ذلك أن على الأمة المصرية — رضيت او سخطت — أن تساير أرقى الأمم في سبل الحضارة والتقدم وألاّ تتأخر عنها قيد رمح ، وإلاّ فقدت مقوماتها ومميزاتها لضعفها ، وفنيت في غيرها من الأمم القوية المحيطة بها فناءً لا مرد لها من بعده .

وكل أمة من هؤلاء الأمم الراقية المفروض على مصر مسايرتها في سبل الحضارة والتقدم رغم أنفها إنما تعتمد في رقيها وتقدمها على جهود جميع أبنائها الخاصة والعامة الذكور والاناث على السواء ، فليس فيها من لا يعمل للرقي والتقدم .

فلا بد لمصر هي الأخرى من أن تعتمد في نهضتها على جهود جميع أبنائها الخاصة والعامة الذكور والاناث كالأمم الأخرى ، وإلاّ تخلفت عن ركب الحضارة واستحال عليها أن تلحق للأمم الراقية غباراً لها فيه .

غير أن مصر لسوء الحظ ليس فيها من يستطيع خوض غمار العمل المطلوب في هذا الميدان ميدان الحضارة والتقدم الحديث الا الخاصة من أبنائها ، وهم فئة قليلة ممتازة كغيرها من الفئات القليلة الممتازة في الأمم الراقية . أما جمهور المصريين الاعظم وهو أكثر من أربعة أخماسهم فانهم لا يزالون على الفطرة أميين لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون ألزم ما يلزم من العلوم والفنون والآداب والنظم والأخلاق التي لا بد لهم منها لأداء أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية وغيرها من الخدمات العامة والحياة المنزلية والاجتماعية الحديثة ، ولمسايرتهم الفئة القليلة الممتازة في طريق الحضارة ومعاونتهم اياها على الأخذ منها بأوفر نصيب والانتفاع بها كغيرهم من عامة الشعوب الأخرى .

إن من المستحيل كل الاستحالة أن تنهض مصر في التحضر بالحضارة الحديثة وفي احتلالها المكان اللائق بماضيها المجيد ، وبجلال موقعها ، وجودة مناخها ، ووفرة ثروتها ، وحسن

استعدادها ، للرقي والرفعة بين أمم العصر الحديث عصر الطاقة الذرية ، ما دام هذا الفارق الكبير بين فئتيها الخاصة والعامة قائماً .

إنها حين تحاول النهوض والتقدم مع قيام ذلك الفارق الكبير بين خاصتها وعامتها ، تكون كرجل برجل واحدة يحاول أن يسابق عدّاءً ماهراً برجلين قويتين فلا يزال يكدُّ ويسعى ويجاهد حتى يقعد به الإعياء في آخر الأمر بلا جدوى ، أو كطائر بجناح واحد يحاول أن يسابق طائراً جارحاً بجناحين ، فانه يتخبط وهو يضرب الأرض بجناحه الواحد دون أن يستطيع نهوضاً ، أو كسفينة بمجداف واحد ، أو بصف واحد من المجاديف ، تحاول أن تمخر في بحر خضمّ ثائر فلا تلبث أن تدور على نفسها وتبقى مكانها إنْ قُدِّر لها البقاء .

فلا بدَّ إذاً لنهضة مصر وتقدُّمها واحتلالها المكان اللائق بها بين أمم العصر الحديث من أن تقوم كما يقومون على رجلين بأن تعتمد في نهوضها على طائفتيها معاً الخاصة والعامة ، فيعمل أبناء مصر جميعاً كباراً وصغاراً ذكوراً وأناثاً متعاونين متكاتفين على وضع أساس الحضارة متيناً ، وعلى بناء صروحها شامخة ضخمة متينة على هذا الأساس المتين .

ولما كانت هذه الحضارة الحديثة التي لا بد لنا من التحضر بها — إذا شئنا أن نعيش أمة قوية عزيزة بين الأمم — قائمة في كل ناحية من نواحيها الحسية والمعنويّة ، الصغيرة والكبيرة ، الظاهرة والباطنة ، العامة والخاصة على العلوم ، والفنون والآداب والنظم الدقيقة ، والأخلاق المتينة ، فان كل محاولة للتحضر بها تذهب كصرخة في واد أو نفخة في رماد إذا لم يكن للفئة الكبرى وهي جمهور المصريين الأعظم الذي لا غنى عن استغلال جهوده في التحضر بهذه الحضارة نصيب ولو قليل من هذه العلوم والفنون والآداب ومكارم الأخلاق .

ولا سبيل لبلوغ جمهور المصريين الأكبر هذا النصيب من التثقيف والتهذيب إلاَّ تنفيذ القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤ م . الصادر لمكافحة الأمية ، ونشر الثقافة الشعبية ، تنفيذاً تاماً شاملاً في أقصر وقت ممكن . وهذا التنفيذ على هذا النحو لا يحتاج إلاَّ الى أن تمتلىء صدور القائمين على تنفيذه رغبة وحماسة في هذا التنفيذ مع التفرُّغ التام له دون غيره . وحشد الجهود الكثيرة الموفورة في مصر .

ان القوانين حبر على ورق فهي أموات وانما يحييها القائمون على تنفيذها بما فيهم من رغبة وحماسة ، وتكون حياتها وانتعاشها على قدر تلك الرغبة وهذه الحماسة . فالمسألة من قديم الزمان مسألة نفوس لا قوانين وما أكثر القوانين التي ماتت عقب صدورها ، وما أكثر الأعمال العظيمة التي تمت بنجاح باهر بدون قوانين . ان الرغبة القوية تخلق الارادة القوية ، والارادة القوية تكتسح كل العقبات وتقيم أضخم الصروح

والقانون المذكور لا يزال قائماً ولكنه لم يجد في وزارة الشؤون الاجتماعية الصادر منها وباعثها وهي المسئول الأول عنه، والقائل حضرة صاحب المعالي وزيرها في العدد الخاص ٥٩٩ من مجلة الاثنين والدنيا الصادر في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٦٤ — ٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ منه الكلمة المأثورة : إن اصلاح العقول البور أهم وأجدى من اصلاح الاراضي البور ! لم يجد هذا القانون الرغبة والحماسة الجديرتين به والتين لا بدَّ منهما لتنفيذه تنفيذاً علمياً عاملا في أقصر وقت ممكن فجعلته عملاً صغيراً من أعمال كثيرة لا تحصى عهدت بها الى مربٍّ كبير نقل اليها من وزارة المعارف ، وكان الجدير بهذا المشروع الضخم أن يكون هو وحده كل عمل هذا المربي الكبير الذي كان مملوءاً رغبة وحماسة كفيلتين بنجاحه ، وأن يحشد مع ذلك لمعاونته أكبر عدد ممكن من الخبراء بهذا النوع من التعليم من دوائر الحكومة المختلفة ومن غيرها ، وهم لا يحصى عديدهم ، على أن ينفذ تنفيذاً كاملاً عاجلاً . على أن الوزارة لم تلبث أن لجأت بهذا المشروع الضخم الذي لا بدَّ منه لحياة الأمة وتقدمها الى وزارة المعارف على أنها المسئول الاول عن مكافحة الأمية، ونشر الثقافة الشعبية، من قبل أن تحقق وزارة الشؤون الاجتماعية بشرات السنين .

غير أن القانون المذكور لم يصدر من وزارة المعارف ولا باسمها، فهي ليست مسئولة عن تنفيذه، فاستقرّ المشروع أخيراً في أحضان كبير من كبار وزارة المعارف يضطلع بعمل جدير أن يستنفد كل جهوده وأوقاته ، على أن يقوم بتنفيذ هذا القانون باسم وزارة الشؤون الاجتماعية . فماذا ينتظر من انسان مثله منقول بعمله الأصلي في شأن عمل إضافي كهذا ؟ انه بلا شك يسير فيه برفق سيراً بطيئاً فيتدرّج فيه على سبيل التجربة . ومثل هذا العمل الخطير لا يليق به تدرّج ولا تجربة . إن مكافحة الأمية ، ونشر الثقافة الشعبية ، ليست كالنبات والحيوان والعقاقير وغيرها من الأشياء التي نزداد بها ترفاً ورخاء، وليس لنا بها عهد، ولا كبير ضرورة، فنستقدمها من بلاد أخرى، ونحلها محل تدرّج وتجريب. فان نجحت استكثرنا منها ، وازددنا بها خيراً ، وإن لم تنجح أهملناها ولم يضرنا إهمالها شيئاً.

إننا إذا أردنا أن نستنبت في مصر نباتاً غريباً حسن أن نستنبته في حقل ضيق على سبيل التجربة، فاذا نجحت التجربة تدرجنا في زراعته حتى نعممها وازددنا به نفعاً، وإذا لم تنجح أهملناه بدون أن نخسر شيئاً يذكر . وإذا شئنا أن نربي فصيلة من حيوان غريب قصرنا التجربة على قليل منها ، حتى اذا نجحت استكثرنا منها شيئاً شيئاً بالتدريج حتى نبلغ كفايتنا منه، وإذا لم تنجح ومات هذا القليل لا نكون قد خسرنا شيئاً وكذلك اذا شئنا أن نجرّب عقّاراً من العقاقير لابادة بعض الآفات الزراعية، أو لعلاج مرض من الأمراض، حسن

أن نقصر التجربة على أقل مقدار ممكن ، حرصاً منا على المال والجهد والارواح أن تضيع بلا ثمرة .

أما مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية فانها شيء آخر ، انها أعظم عوامل تقدمنا ورقينا وعزتنا ومجدنا ، إنها محاربة عدو قديم وقد تدرّجنا فيها وجربناها من آماد بعيدة في الكتاتيب وفي المدارس الأولية والالزامية ، فاذا لم تكن هذه التجارب الطويلة أكسبتنا خبرة وقدرة على التنفيذ السريع . فلا أمل في نجاح تجارب جديدة على أننا إذا لم نكن جربناها فان الواجب يقضي أن نسارع الى تنفيذها بدون انتظار تجارب أو تدرّج .

فلا بدّ اذاً من المضيّ في هذه الحرب حالاً بدون مهادنة ، فلو أن الجراد هجم علينا هجوماً واسع النطاق أفنجعل مكافحته محلاً للتدرج والتجربة ، فنقاومه في بعض المواضع على سبيل التدرج والتجربة ، ونتركه في غيرها يأتي على الأخضر واليابس ، أم نقوم كلنا على بكرة أبينا قومة رجل واحد بكل ما تملك من وسائل ونحاربه حتى نقضي عليه ، ولا يقعدنا عن المقاومة خلل في الوسائل ولا نقص فيها وفي التجارب . ولو أن مرضاً كالملاريا هبط مصر وتفشى فيها تفشياً وبائياً فأصاب كالأمية أربعة أخماسها ، أفنجعل مقاومته محلاً للتدرج والتجارب ، فنقاومه في ناحية ونتركه في سائر النواحي يعيث فتكاً وتنكيلاً بالمواطنين ، أم نقوم كلنا بكل ما لدينا من وسائل ضعيفة وقوية ونكافحه حتى نقضي عليه . ولو أن أمة هجمت علينا بكل ما تملك من قوى حديثة أنجعل مقاومتها محلاً للتدرج والتجربة . فنتباطأ في محاربتها حتى نختبر أسلحتنا وقوتنا ، وحتى تقضي هي علينا ، أم نقوم كلنا بما تيسر لنا من أسلحة قديمة وحديثة ، وندافع مستميتين ، ونعمل ونحن ندافع على تعرف وجوه الضعف فينا والقوة في عدونا ، وعلى استكمال قوتنا حتى نردها عن بلادنا مخذولة مدحورة . ألا تكون لنا عبرة فيما فعلت انجلترة حديثاً حين أخذت تقاوم أقوى دول العالم وحدها بأقل من ربع تسليح صامدة صابرة ، وتكد وتسعى وهي تحارب لاستكمال قوتها حتى استكملتها وانتصرت . انها بلا شك أمة دعة وهدوء ، والجهاد فيه ثورة ومشقة تأباها طباعنا الوادعة الهادئة ، ولذلك نلجأ دائماً الى التجارب والتدرّج في كل شيء حتى فيما لا يحتملهما

وأيّ فرق بين هؤلاء الأعداء الجراد والوباء والناس وبين هذا العدو الجاثم على صدورنا منذ القدم ، وهو الأمية والجهالة الشعبية ، إلاّ أن الثلاثة الأولى حسية والأمية والجهالة الشعبية من الأمور المعنوية غير أنها أفتك بنا منها . وهل يخفى أمر هذه الأمور المعنوية وخطرها على الثقة المختارة من الأمة المسئولة عن سلامة الوطن ونهضته وتقدمه التي تتباطأ في تنفيذ هذا القانون بلا مبرر ظاهر .

المهمّ أن مكافحة الأمية ، ونشر الثقافة الشعبية،ليست كنبات أو حيوان غريب عن مصر يراد نقله اليها واستنباته أو تربيته فيها ، وليست كعقار من العقاقير يراد اختباره فتحملها على تدرّج أو تجربة،وإنما هي عدوّ بل شرّ عدوّ لا تجوز الهوادة في محاربته ، ولذلك سمّي قانونها قانون مكافحة الأمية،والمكافحة هي المحاربة .

وعلى من وقع أخيراً عبء هـذه الحرب ؟ انه وقع على عاتق المدير العام للتعليم الأولي في وزارة المعارف حضرة صاحب العزة مصطفى شكري بك ، وحضرته يعتقد في نفسه ما يعتقده فيه كل من له صلة قديمة أو حديثة بعيدة أو قريبة بالتعليم الأولي ، ومنهم كاتب هـذا المقال وهو أنه زعيم التعليم الأولي منذ زمن طويل مضى غير منازع ، قد قضى فيه السنين الطوال،وبسط سلطانه عليه في القطر كله كل البسط،وعرف ما ظهر منه،وما خفي ، وما صلح منه،وما فسد،حتى أصبح أكثر الناس علماً وخبرة به حقّاً .

وانه بهذه السلطة وبهذه الزعامة اللتين طال أجلهما،وبعلمه وخبرته اللذين عظم شأنهما يُعدّ أول المسئولين عن تعميم التعليم الأولي وعما أصابه من البطء،وانه بقبوله هذا العبء الثقيل الجديد،عبء تنفيذ القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤ م. قد ضاعف تبعاته وزاد ديونه لأنه بهذا القبول الأخير ، قد حصر جميع الوسائل لمكافحة الأمية ، ونشر الثقافة الشعبية في يديه وحده .

فإذا لم يكن قد وُفّق فيما مضى لتعميم التعليم الالزامي النهاري، وهو الوسيلة الاساسية للقضاء على الأمية من أساسها لعائق أو لعوائق اعترضته في السنين الطوال فقد أصبح في يده وسيلة فرعية قوية لدك صروح الأمية والجهالة الشعبية من أعاليها ، وهي القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤ المذكور،فإن هذا القانون على قلة مواده لم يدع وسيلة لمكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية إلا ذكرها وكفلها،ولا عقبة تعترضها إلا ذللها ووضع في يدي القائم على تنفيذه كل القوى [illegible] بالاجهاز عليها وزوده [illegible] ما يحتاج اليه ، ولم يحدّه بوقت . ولا [illegible] [illegible] بعد الآن في استمرار هـذه الحالة حال الأمية والجهالة الشعبية المتفشية في البلاد [illegible] الأمة عن النهوض والتقدم . لأنه إذا لم يستطع القضاء عليهما من ناحية التعليم الأولي النهاري استطاع القضاء عليهما من ناحية التعليم الشعبي [illegible] الصادر به القانون المذكور .

إن التعليم الأولي [illegible] ومكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية [illegible] وكلاهما متمم للآخر فالتعليم الأولي [illegible] تجتث الأمية والجهالة الشعبية من [illegible] ومكافحة الأمية ونشر [illegible] [illegible] تجتثهما من [illegible] أن يجتمعا في ادارة واحدة من من

المتحمسين أن يجتمعا فيها. فاذا كان ذلك كذلك، فقد وجب أن ينتقل المشروع كله بقانونه إلى وزارة المعارف نقلاً تامًا فتكون هي المسئول الوحيد عنه، وأن يكون للمدير العام للتعليم الالزامي ولمكافحة الأمية مساعدان أحدهما يختص بالتعليم الأولي الالزامي النهاري، والآخر بمكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية الليلية على أن يكونا من عشاق هذا النوع من التعليم ومن الغيورين عليه، والمتحمسين فيه، وأن تستغل كل الأموال المرصودة لها معاً وجهود كل الخبراء الكثيرين بهذا النوع من التعليم.

وليس بكثير على هذين العملين الجليلين أن تتولاهما ادارة لها مدير عام ومساعدان وأن تحشد لها كل القوى العاملة المثمرة، وأن تنفق عليهما كل الأموال المرصودة لها، بل إنهما جديران أن تنشأ لها وزارة خاصة.

لقد آن أن تقدر هذا المشروع قدره وأن نمدّ له ما يستحق من قوة وأن نسير فيه قدماً بسرعة الضوء. فلطالما تلكأنا فيه تلكؤاً ضارًا معيبا حتى أصبح لا يحتمل بعد الآن شيئاً من إضاعة الوقت في التقدير والتدبير والتفكير فقد تركتنا أمم أقل منا ثروة وحضارة. تفكر وتقدر وتدبر. وقضت هي على الأمية والجهالة الشعبية لا بشيء إلاّ بأمرين اثنين هما الرغبة والحماسة.

فاذا سار حضرة المدير العام للتعليم الأولي في تنفيذ هذا القانون بالرغبة والحماسة اللتين يستحقهما، أمكنه أن يعوض على الأمة الايام الطويلة التي أبطأ فيها تعميم التعليم الالزامي، غير أن هذه البداية الضيقة النطاق في محافظة القاهرة وست مدن من مدن مديرية الجيزة التي وضعت حدودها في وزارة الشؤون الاجتماعية قبل أن تدفع بمشروع مكافحة الأمية اليه بداية ضيقة، لا تليق بالمشروع، ولا بما يستحق من رغبة وحماسة، ولا بما أوتي القائم على تنفيذه من وسائل وقدرة وعلم وخبرة به.

والواجب الآن إذا كان تعميم المكافحة في القطر كله من الآن مستحيلاً ألا يقتصر التدرج في هذه السنة على محافظة القاهرة ومدن مديرية الجيزة الستة، بل لا بد من مضاعفة الجهود والنشاط لانشاء أكبر عدد ممكن من مدارس المكافحة في أنحاء القطر المختلفة بدون تقيد بعدد معين منها، ولا بزمان ولا بمكان، وبدون تراخ في الجهود وفي النشاط طوال هذه السنة. فلعلّ ذلك يعين على فتح عدد كبير جداً من هذه المدارس في هذه السنة وعلى فتح البقية الباقية منها في السنة الآتية أو فيما يليها على الأكثر، ولا يجوز أن يتأخر التعميم عن ذلك

[illegible]

أحساب الدولة الفاطمية

اختلف المؤرخون قديماً وحديثاً في نسب عبيد الله المهدي رأس الأسرة الفاطمية فقال بعضهم مثل ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ، والذهبي في كتابه تاريخ الاسلام وغيرهما ، إن نسب الفاطميين مدخول عليهم ، وأنهم منه كمن يدعي أن النحاس من الذهب ، وانهم ينتمون أصلاً الى رجل مجوسي هو عبيد الله سعيد ابن الحسين بن احمد بن عبد الله القداح ابن أبي شاكر ميمون بن ديصان الثنوي المذهب ، لأنهم يقولون بوجود الهين آلـه النور وآله الظلمة ، وديصان هو ابن سعيد الغضبان ، صاحب كتاب الميدان في نصر الزندقة . وأصله من كور الأهواز من المجوس . وكانوا يقولون لكل شيء من العبادات باطناً ، وان الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صوماً ولا حجاً ، ولا حرّم عليهم شيئاً من المحرّمات ، وان هذه العبادات عذاب على الامة ، كما كانوا يبيحون نكاح البنات والاخوات. وكان من رأيهم أن الأنبياء طلاب رئاسة ، فهم لذلك محتالون كاذبون ، وانهم كانوا يظهرون التقشف والزهد والتصوف وكثرة الصلاة والصيام ويأمرون الناس بذلك وهم على خلافه ، وانهم كانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت ، ليخدعوا ضعاف العقول ، وأن عبد الله ابن ميمون رتب سبع دعوات يتدرّج فيها الشخص الى الكفر .

أو هم يهود ، إما لأن الحسين لما قدم الى سلمية (من أعمال حمص الشام) جرى بحضرته حديث النساء ، فتزوج بامرأة رجل يهودي حداد بسلمية هي أم سعيد وكانت بارعة الجمال . وقد مات عنها زوجها ولها ولد من اليهودي فأحبه وأدّبه . ولما لم يكن له ولد عهد الى ابن اليهودي الحداد هذا بالعلامات ، وعرّفه أسرار الدعوة وبالاموال وأرشده عن الدعاة ومكانهم ، ثم زوّجه ابنة عمه محمد بن أحمد المكنى بأبي الشلعلع ، وطلب الى أصحابه أن يقوموا بنائته وخدمته ، فكان هو الامام عبيد الله المهدي الهاشمي النسب .

وإما لأن صاحب سجلماسة « اليسع بن مدرار » لما رأى جيوش الشيعي قادمة لتخليص المهدي وابنه القائم ، وكانا قد سجنهما وتيقن من انهزام جيوشه أمام جيوش الشيعي ، قتل المهدي وفرّ في ظلام الليل ، وان الشيعي لما دخل سجلماسة وعلم خبر موت المهدي تخوّف من كتامة لأنه كان يعدهم بخروج المهدي وتَملّكه الأرض ، خشي زوال ما بيده ، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشخص المقتول ، وقال لهم هذا امامكم وامام الاسماعيلية .

وذهب آخرون كابن الاثير في تاريخه الكامل ، وابن خلدون في مقدمته ، والمقريزي في خططه ، وفي اتعاظ الحنفا وغيرهم ، أن النسب صحيح وأنه علوي فاطمي إذ هو عبيد الله بن الحسن ابن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

وأكبر الظن ان نسب عبيد الله المهدي صحيح الى فاطمة الزهراء والامام عليّ . ودليلنا على ذلك الحوادث الآتية :

١ — احتفظ أشبال الامام علي بمكانتهم الرفيعة بين الشيعة ، وكان هؤلاء الاحفاد بحمد الله وفرة في العدد ، فلا يعقل أن شيعتهم يعرضون عنهم للدعاء لابن مجوسي أو ابن يهودي

٢ — لو كان في نسب الفاطميين مغمز لما خضع لامامتهم يحيى بن ادريس بفاس أو سلالة الحسن بن زيد العلوي باليمن ، أو الحسن بن جعفر الحسني بمكة ، أو الأمراء من بني الحسين بالمدينة وغيرهم . وكلهم سادة علويون فيهم العالم بالانساب ، يهمهم الذب عن نسب الرسول

٣ — لو لم يكن عبيد الله المهدي من النسب الشريف لما نزل سلمية مستخفيا خوفاً من بطش الخليفة العباسي المكتفي بالله . واذا لم يكن اماماً علويًّا صحيح النسب من أهل البيت لما توالت كتب الخليفة العباسي بأوصاف المهدي لولاته على مصر وبرقة وطرابلس وافريقية والمغرب للقبض عليه .

٤ — يقول ابن طاهر في كتابه أخبار الدول المنقطعة المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٤٠ « ان الشيعي لما دخل (سجلماسة) وعلم خبر موت المهدي . . . أخرج لهم رجلاً يهوديًّا » . ومن يبحث هذه الواقعة مسترشداً بشعل النقد ، يرى أن هذا المؤرخ اعتمد على مجرد النقل ، سواء أكان غثًّا أم سميناً ، إذ كيف عثر الشيعي على هذا اليهودي بهذه السهولة مع وجود « القائم » ابن المهدي ؟ أليس من المنطق والمعقول انه اذا كان قد قتل المهدي حقيقة ولم

بقتل ابنه كما هي رواية ابن طاهر، أن يجلس الشيعي ابنه القائم مكانه ؟!

بل لو فرض جدلاً أن اليسع ابن مدرار صاحب سجلماسة عند ما هرب ليلا بقتل المهدي وابنه، وهو ما لم يقل به أحد هنا، أبلغت البلاغة بالشيعي أن لا يفكر حتى في مسلم ولو غير علوي ليجلسه مكانه .

٥ — قال نفس المؤلف في نفس المخطوط ص ٤٧ « لما دخل مصر (أي المعز لدين الله) لقيه أشرافها وخاصته من بينهم الشريف عبد الله بن احمد بن طباطبا الحسيني. وقال له: الى من ينتسب مولانا ؟ فقال: سنعقد مجلساً ونجمعهم فيه ونسرد لهم نسبنا. ولما استقرّ بالقصر جمعهم في مجلس وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا لم يبق معتبر، فسلّ عند ذلك لهم نصف سيفه . وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً. وقال هذا حسبي، فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ، وانصرفوا من عنده ».

هذه قصة في رأينا سخيفة غير منطبقة مقدمتها مع مؤخرتها ، ولعل تصوّره الرواية على أنه شجاع، يعترض الخليفة وهو في أوج عظمته، ويسأله عن نسبه، ثم تصوّره بعد ذلك بالجبن، لأنه سكت عند ما سمع ما سمع من الخليفة .

ثم كيف سمح جوهر لرجل عُرف بين الناس بالطعن في نسب مولاه المعز لدين الله بأن يبقى حرّاً طليقاً حتى يوم قدوم الخليفة ليلقاه بهذه المثالب .

ثم هي رواية فيها يعتد الخليفة بقوته وماله ولا يعتد بإمامته وهيبة انتسابه لآل البيت مما نلحظها دواماً فيه .

ويكفي لهدمها أن نقول أن ابن طباطبا مات سنة ٣٤٨ هـ وإن المعز لدين قدم لمصر سنة ٣٦٢ هـ .

٦ — فاذا أضيف إلى ذلك أن الكلام في نسب العبيديين لم يخلق إلاّ في أوائل القرن الخامس الهجري، حين بلغت الأحقاد والأضغان أقصى مداها ، وعند ما توغل الفاطميون في أملاك الدولة العباسية وبسطوا سلطانهم في ثلاث من حواضر الاسلام الكبرى ، المدينة، والفسطاط، ودمشق، وبعد أن أقيمت لهم الدعوة بالمغرب كله وبالبلاد المصرية وسوريا واليمن والحرمين وبعض بلاد الجزيرة ، وحين ضيقوا الممالك في وجوه العباسيين حتى في بغداد

قصبها حاضرة خلافتهم. فهنا وهنا فقط كتب الخليفة العباسي القادر بالله محضراً في بغداد في ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ وهو خصمهم وأخذ فيه خطوط القضاة والأئمة والاشراف ينفي نسب الفاطميين من علي بعد أن ملأه بالطعن المزري ، والقدح المشين في انسابهم وعقائدهم لتنفير الناس منهم.

ونرى أن هذه الصحيفة يعوزها الدليل العلمي، لأنها قائمة على مجرّد السماع، خصوصاً وأن موقعيها كانوا تحت تأثير الخليفة. وأكبر دليل على ذلك عدول أحد الشهود عما قرّره فيها. فقال :

ألبس الذل في بلاد الاعادي ... وبمصر الخليفـة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي اذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيد النا ... س جميعاً محمد وعلي .

فلما علم الخليفة القادر بالله العباسي ، أن الشريف الرضي كتب تلك الأبيات التي تثبت صحة نسب العبيديين ولم يودعها ديوانه خوفاً من العباسيين، استدعى والد الشريف ، فحلف انه لم يسمع بها، فطلب أن يعتذر الشريف الرضي للخليفة العباسي، وأن يطعن في نسب المهدي، فلم يرض الشريف الرضي ، فهدده والده بألاّ يقيم معه في بلد . فحلف له فقط أنه لم يقل هذه الأبيات، وبقي امتناعه عن الاعتذار، وعن كتابه طعن في نسبهم، كما كان يريد الخليفة العباسي، أدلة ساطعة على صحة نسبهم .

عطيه مصطفى مشرفه

﴿ المراجع ﴾

ابن ظافر اخبار الدول المنقطعة المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٣٩ و ٤٠
وابن الاثير في تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٨ (طبعة ليدن) وأبو شامة كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ (القاهرة ١٢٨٧ هـ)
وابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٨٧ (بولاق ١٢٨٣ هـ)
والنويري نهاية الارب المخطوط ج ٢٦ ورقة ٢١ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٥
وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٦٣ — ٦٤ (طبعة الحسينية)
والمقريزي الخطط ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩ و ٢٣٣ — ٢٣٤
وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٥ — ٧٧ (القاهرة ١٩٢٩ م)
وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٥٠ و ٥١ (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢)
وأبو العباس احمد القري كتاب نخبة الاعلاء المخطوط ورقة ١٠٦

المدرسة الخاتونية البرانية
بدمشق — ٣

الخطأ السادس(١)

يقول الأستاذ بالذيل ص ٢١١ (عن المدرسة) الخاتونية البرانية « أنها كانت باقية الى زمن ابن كنان لأنه قال في « المروج السندسية بتاريخ الصالحية » ص ٢٧ « جامع الخاتونية فيه درس حديث في الأشهر الثلاثة » .

ثم ينقل عن العلموي (المؤرخ) أن أول من هدمها ونقل رخامها الى مدرسته سيباي . اه وبعبارة أخرى أن هذه المدرسة كانت موجودة في عهد ابن كنان حتى هدمها سيباي فهل هذا صحيح ؟

اننا نعلم أن سيباي كان كافل الشام أي أميرها ونائبها من قبل دولة السلاطين المماليك وهو آخر كفالها حيث زالت هذه الدولة بهزيمة السلطان قانصوة الغوري وسقوط سوريا ومصر في يد السلطان سليم العثماني ٩٢١ / ٩٢٢ هـ .

وقد بنى سيباي مدرسته الشهيرة بباب الجابية بدمشق ٩١٥ هـ وهي التي نقل اليها آلة ورخام المدرسة الخاتونية البرانية بعد أن هدمها .

ونعلم أن العلموي الذي يروي هذه القصة توفي ٩٨١ هـ . وفي عهده كانت المدرسة مهدومة وان ابن كنان هو من رجال القرن الثاني عشر الهجري وقد توفي سنة ١١٥٣ هـ .

فكيف يصح في الأذهان ان تكون هذه المدرسة « باقية الى زمن ابن كنان » كما يقول الاستاذ أسعد أي الى منتصف القرن الثاني عشر الهجري مع انها هدمت قبل ذلك (في عهد سيباي) بأكثر من مائتي سنة ؟

وكيف يمكن أن يكون ابن كنان سابقاً لسيباي ؟

---

(١) ظهر الجزءان الأول والثاني من هذا البحث في عددي نوفمبر وديسمبر الماضيين من المقتطف ، في تحقيق مساجد دمشق وتعريب اثر التاريخ وتصحيح الأخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الذي ألفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ أسعد طلس

ألم يكن في كل هذا ما يلفت نظر الأستاذ الى أن « جامع الخاتونية » الذي يتكلم عنه ابن كنان هو معهد آخر غير المدرسة الخاتونية البرانية» التي يعنيها العلوي ويروي قصة هدمها !

تصحيحات أخرى

الآن وقد انتهينا من اثبات أن مسجد تربة الخاتون بالجبل هو المسجد الجديد جنوبي الشركسية . فلننظر ماذا يقول الأستاذ أسعد عن هذا المسجد .

مما يؤسف له حقا إن هذا الكتاب الذي نصححه مشحون بالأخطاء بدرجة غير عادية بحيث يحار المرء هل يصحح التواريخ أو الأسماء أو المواقع أو عهود البناء . ؟ وهل يصحح المتن أو الحواشي أو الذيل ؟ . ان تعقب أخطاء الأستاذ أسعد واحصاءها وتصحيحها يستدعي عملاً ضخماً في حجم الكتاب نفسه إن لم يكن أكبر منه وهو واجب سنقوم به حتماً خدمة للعلم وغيرة منا على تراث مجيد اشتركت في تخليده هم أعاظم الرجال والنساء وعبقريات أهل العلم والفن والصناعة وجهود أجيال طويلة متعاقبة . فلا يصح أن يؤخذ على انه هزؤ أو ألاعيب أو تسلية وتزجية فراغ أو وسيلة للتعالم والادعاء والظهور .

أولا — يقول الأستاذ أسعد في المسجد رقم ٥٩ بالذيل صحيفة رقم ٢٠٤ « الجامع الجديد بالصالحية ... ... هو تربة السيدة عصمة الدين خاتون بنت معين الدين انر زوجة نورالدين ثم صلاح الدين أنشأتها سنة ٥٧٥ ثم وسعتها وعملت معها جامعاً ؟ . . — الخ . »

ولا ندري من أين أتى الأستاذ بهذا التاريخ فاللوحة التذكارية التي لا يزال منقوشاً بها اسم عصمة الدين خاتون والتي لا تزال موجودة بالواجهة الشرقية للجامع الجديد قد ذكر بها التاريخ سبع وسبعين وخمس مائة . والى القارىء نص هذا النقش التاريخي كما نقلناه ولدينا الآن مجموعتنا الخاصة طبعة منه بالحجم الطبيعي .

السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم .

السطر الثاني : أمرت بانشاء هذه التربة المباركة المقبرة الى رحمة .

السطر الثالث : الله الراجية لرضوانه الخاتون الأجلة السيدة .

السطر الرابع : الكبيرة المالكة العادلة عصمة الدنيا والدين شرف .

السطر الخامس : الخواتين تاج نساء العالمين ابنة الشهيد السعيد .

السطر السادس : الغازي المجاهد معين الدين سيف اسلام .

السطر السابع : قدس الله روحه في شهور سنة سبع وسبعين وخمس مائة .

طول اللوحة ٨٢ × ٥٢ سنتمتر .

سعة السطر ٨ و ٦ سنتيمتر .

طول قائم حرف الألف بأول الكلمات كنموذج قياسي ٦ سنتيمتر في المتوسط .

نوع الكتابة : نسخ أيوبي .

فصحة التاريخ هي سنة ٥٧٧ لا سنة ٥٧٥ كما ذكر الأستاذ أسعد . وهذا هو تاريخ انشاء التربة كما يظهر ذلك من السطرين الثاني والسابع . أما تاريخ وفاة هذه السيدة ودفنها فيها فهو سنة ٥٨١ هـ . أي بعد انشائها بأربع سنوات .

* * *

ثانياً — وقد نقل الاستاذ أسعد النقش التاريخي الموجود على باب الجامع الجديد وذكر في صحيفة ٢٠٥ هكذا .

« بسملة : أنشأ هذا الجامع المعمور بذكر الى (١) تعالى بما أنعم (٢) الله على عبده الفقير الى الله تعالى سليمان بن حسن العقيري (٣) التاجر تقرباً الى الله (٤) باريه الكريم وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي ابن التدمري في شهور سنة تسعين (٥) وسبعمائة غفر الله لهما » اهـ .

وتصحيحاً لقراءة الأستاذ أسعد نرى واجباً علينا أن نذكر هنا النص الصحيح لهذا النقش فقد شاهدناه في موضعه وأخذنا عنه طبعة بالحجم الاصلي هي الآن في مجموعتنا الخاصة بنقوش دمشق التاريخية الأثرية .

وهذا النقش سطران كبيران . عرض السطر ٢١ سم :

السطر الأول : أنشأ هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى بما أنعمه الله تعالى على عبده الفقير الى الله تعالى سليمان

السطر الثاني : ابن حسن الغفري التاجر تقرباً الى ربه الكريم وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي ابن التدمري في شهور سنة تسعه وسبعمئه غفر الله لهما .

فالكلمات الواردة خطأ في قراءة الاستاذ أسعد هي :

بالسطر الأول	١ — بذكر الى		صحتها بذكر الله
« «	٢ — بما أنعم	«	بما أنعمه
« الثاني	٣ — العقيري	«	الغفري أو العفري
« «	٤ — تقرباً الى الله باريه الكريم	«	تقرباً الى ربه الكريم
« «	٥ — سنة تسعين وسبعمائة	«	تسعة وسبعمائة

ولا ندري كيف ينقل الأستاذ أسعد عن النص هذا التاريخ ويذكره في آخر صحيفة رقم ٢٠٤ في عبارة نصها « وذلك بتولي ابن التدمري سنة ٧٠٩ » ثم يأتي هو بعد ذلك

فيقرأه في موضعه وينقله في كتابه بعد أربعة أسطر فقط في صحيفة ٢٠٥ ويقول انه سنة ٧٩٠ هـ .

والظاهر انه تسرّع في القراءة بدليل أخطائه الكثيرة فيها. ولعله أراد تصحيح عبارة النعيمي فوقع هو في الخطأ .

ونحن نلفت نظر القارىء للملاحظات الآتية :

١ — في كلمة ربه من عبارة تقرباً الى ربه الكريم نقلها هو باريه وحقيقة الباء والألف انها تكملة كلمة تقرباً ولا علاقة لها بكلمة ربه — فأضاف هو من عنده كلمة الله وكرر الباء والألف فصارت تقرباً الى الله باريه .

٢ — في كلمة العقيري نجد نقطتين إحداهما فوق الغين والثانية فوق القاف إذا كانت الكلمة الغفري فاذا اعتبرناها نقطتين للقاف كانت الكلمة العقري . ولا توجد نبرة لياء العقيري الوسطى، ولا نقطتان لها أسفل الكلمة . وانما توجد نقطتان فوق الراء وتحت الياء الاخيرة المنفصلة لأن هذه الياء مكتوبة فوق الراء .

وقد جرت العادة في أمثال هذه الياءات الأخيرة أن توضع تحتها نقطتان وفي هذا النقش نفسه نجد ذلك في كلمات بتولي وعلي والتدمري .

أما قراءة النعيمي لها بالعقيري وأخذ من أتى بعده بهذه القراءة من أمثال العلوي وسوفير فأساس الخطأ فيها قراءة النقش عن بعد وعدم دراسته بدقة كافية .

(انظر النعيمي ج ٢ ص ٤٥٠ ٤٥١ والعلوي ص ١٢٧ / ١٢٨ وسوفير المجلة الاسيوية ص ٢٣٦ / ٢٣٧ سبتمبر — اكتوبر ١٨٩٥

٣ — فيما يتعلق بالتاريخ وأنه « تسعة وسبعمئة » وليس تسعين وسبعمائة كما يقول الاستاذ أسعد

نقول أولا : أن الكلمة الأولى لا يمكن أن تكون تسعين لعدم وجود نبرة للياء ولا نقطتان لها من أسفل وكذلك لا توجد نقطة للنون اذا كانت الكلمة تسعين .

ثانياً — والموجود فعلاً تاء مربوطة أخيرة عليها نقطتان تجدهما أعلا حرف العين وهما كبيرتان وظاهرتان بوضوح تام .

ثالثاً — وكذلك هذه التاء المربوطة الأخيرة في « تسعة » تشبه التاء المربوطة في كلمتي سنة وسبعمئة . وكذا الهاء في كلمة الله مع امتدادها الى أسفل أكثر قليلا .

رابعاً — ان الكلمات المنتهية بحرف نون مثل ابن وحسن فيها النون على شكل قوس أقرب الى الاستدارة هكذا ابن . حسن فلو كانت الكلمة تسعين لكانت كتابة نونها

الأخيرة وفقاً للاسلوب الكتابي نفسه الذي اتبع في كتابة هاتين الكلمتين .

هذه هي البراهين المستمدة من دراسة حروف النقش ومقارنتها وزيادة في التأكيد وقطعاً لكل لبس ننقل هنا رواية شاهد عيان معاصر هو المؤرخ شمس الدين الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ . قال :

« توفيت (عصمة الدين خاتون) رحمها الله تعالى في ذي القعدة (سنة ٥٨١) هـ ودفنت بتربتها وبلغ السلطان (صلاح الدين الايوبي) وفاتها وهو مريض بحران فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف وكان يصدر عن رأيها .

وفي زماننا وسعت تربتها وعملت جامعاً وأقيمت فيه الجمعة وغيرها . انتهى .

(أنظر النعيمي باب المدرسة الخاتونية الجوانية بمجلة معجم الذهب الدارس ج ١ ص ٧٤٢)

فلا يمكن إذن أن يكون تاريخ ذلك سنة ٧٩٠ كما يريده الاستاذ أسعد بل هو سنة ٧٠٩ لأن الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ يقول ان هذا التوسيع كان في زمانه وربما كان أحد المصلين بهذا الجامع عند تمام هذه العمارة .

وقد ذكرنا من قبل أن التتار وصاحب سيس شرعوا يوم السبت النصف من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ في نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرفية (بالصالحية) الخ أنظر ابن كثير مجلد ١٤ ص ٨

وأشار المقريزي الى هذا الحادث في السلوك ج أول ص ٨٩٢ بقوله « وكان سبب نهب الصالحية أن متملك سيس بذل فيها مالاً عظيماً وكان قد قصد خراب دمشق عوضاً عن بلاده فتعصب الأمير قبجق ولم يمكنه من المدينة ورسم له بالصالحية فقصدها متملك سيس وأحرق المساجد والمدارس وسبى وقتل وأخرب الصالحية الخ »

ونتيجة ذلك أن هذا المسجد احتاج للعمارة بعد خرابه في هذا الحادث فتم ذلك في سنة ٧٠٩ أي بعد عشر سنوات فقط من الحادث لا بعد تسعين سنة كما يريده الاستاذ أسعد

كلمة ختامية

ولا نريد أن نختم بحثنا دون أن نوجه هذه الكلمة الى الاستاذ . فقد جاء بصحيفة ١٨٧ في مقدمة « الذيل » الذي ألحقه بكتاب ابن عبد الهادي ما نصه : —

« هذا ذيل وضعته لكتاب « ثمار المقاصد » »

(١) أحصيت فيه مساجد دمشق الموجودة الى نهاية عام ١٣٦١ هـ (= ١٩٤٢ م)

(٢) وقد زرتها واحداً واحداً فوصفتها وصفاً مدلولاً ما كان جديراً به واختصرت

في وصف المساجد الحديثة وقليلة الشأن .

(٣) وقد حاولت تعيين زمن كل واحد معتمداً في ذلك اما على ما عثرت عليه من نصوص المصادر التاريخية ... واما على ما قرأته في جدرانها من كتابات ونقوش ... واما على طرز البناء وأسلوب عمرانه . وقد أعانني في هذه الناحية المهندس الاستاذ ا كوشار ... الخ » اھ .

ونقول اننا حاولنا أن نرى تحقيق ذلك جميعه في مسجد الخاتونية البرانية فلم نظفر بطائل بل لم نعرف السبب الذي من أجله ذكر هذا المسجد بالذيل لأنه لا وجود له بمدينة دمشق « في نهاية عام ١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م » بل لم يكن موجوداً في القرن السابق ولا في الذي سبقه .

والاستاذ نفسه ينقل عن العلموي أن الخاتونية البرانية هدمها سيباي كافل دمشق وأخذ رخامها وآلتها في بناء مدرسته . وقد حدث ذلك سنة ٩١٥ هـ . أي من نحو ٤٥٠ سنة .

وبما انه غير موجود فهو لا ينطبق عليه أي غرض من الأغراض التي ذكرها الاستاذ وأوضحناها أعلاه والتي من أجلها يصح أن يذكر بالذيل .

ونحن نسائل الاستاذ : ألم يكن الافضل بدلاً من حشو « الذيل » بمساجد لا وجود لها ، أو مساجد تافهة لا أهمية دينية أو تاريخية أو أثرية أو فنية لها ، بل أن بعضها لا يصح أن يطلق عليه اسم مسجد لانه لا ينتفع به للصلاة وهو أقرب الى الخربات أو الساحات المهملة . ألم يكن الافضل أن يترجم في هذا الذيل لبعض المساجد ذات الاهمية التاريخية والفنية والاثرية التي تزدان بها مدينة دمشق من أمثال المدرسة الرشيدية بالميدان الفوقاني ، والمدرسة العادلية البرانية بالمهاجرين ، وقبة الحمراء بجادة المدارس ، والمدارس الشبلية والبدرية والحافظية بطريق الشبلية وعين الكرش وغيرها كثير أحصيناه وسنتكلم عنه في مقالتنا التالية وما ذكرنا هنا إلا القليل من المساجد ذات الاهمية التي لا تخفى على فطنة الاستاذ لما فيها من آيات الصناعة الايوبية أو المملوكية والتي يعد اسقاطها من ثبت آثار دمشق ومساجدها جناية على تاريخ هذه المدينة التي عانت من ويلات التاريخ المتعاقبة ما أفقدها من كنوز الفنون والصناعات ما كانت جديرة أن تزهو به على الكثير من مدائن الدنيا .

لقد أوجزنا ما أخذناه على الاستاذ أسعد من أخطاء كثيرة جداً في نشر كتاب « ثمار المقاصد » والتذييل له . وقد صححنا العشرات منها بأبحاث مستوفاة توخينا فيها الظهار الحقيقة حسبما وسعته طاقتنا وسمح به وقتنا وكان رائدنا وسيظل دائماً التزام الخطة التي أخذنا بها أنفسنا وهي أن نقرن كل قول بالدليل عليه حتى تقوم الحجة ويتضح وجه الصواب . خدمة للعلم واحياء لتاريخ هذه المدينة الزاهرة وبعث أمجادها الغابرة .

« القاهرة »

الدبر محمد رجب

علم السياسة

طبيعته وأساليبه

من أجل أن نفهم طبيعة علم السياسة ومداه، يحسن بنا أن نلخص الموضوعات التي يشتمل عليها حتى نعرف طرقه ونعين الحدود التي تفصله عن سائر العلوم الأخرى الوثيقة الصلة به. ويحسن كذلك تعريف بعض المصطلحات السياسية الأساسية.

وعلى النقيض من التعريفات الدقيقة المضبوطة للعلوم الطبيعية، فإن مصطلحات علم السياسة كثيراً ما تستخدم في المخاطبات العادية دون عناية أو تحفظ، وتنسب إليها معانٍ مزدوجة فضلاً عن أنها كثيراً ما تشوه عمداً بأن تنسب إليها معانٍ تتفاوت جمالاً وقبحاً وفقاً لما تمليه الأغراض الحزبية أو الوطنية.

طبيعة علم السياسة

يمكن تعريف علم السياسة بأنه علم الدولة. وهو يعالج شئون العلاقات بين الأفراد الذين يؤلفون وحداتٍ سياسية وينظم حكوماتهم وأعمالهم فيما يتعلق بإصدار القوانين والتشريعات وتنفيذها، والإشراف على العلاقات الداخلية. فهو يعنى بالعلاقات بين الأفراد الخاضعين لقوانين الدولة، وبعلاقة الأفراد أو الجماعات بالدولة، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى، ويعالج مشكلة التوفيق بين السلطة السياسية والحرية الشخصية. ويهتم بنوع خاص بالدولة، والحكومة، والقانون. ولا يقتصر اهتمام علم السياسة على النظم السياسية وحسب، بل يتعداها إلى النظريات السياسية أيضاً، وهي تشمل نظريات الفلاسفة السياسيين عن الدولة، والقوانين السياسية العامة التي تشكل تفكير الشعب السياسي. وكان للنظريات والمثل العليا السياسية تأثير قوي على تطور الدولة وتقدمها، وخاصة بعد ما شرع الإنسان يتحكم في ما كان يعدُّ قبلاً عملاً لا شعورياً وأصبح يوجهه ويديره.

ويبحث علم السياسة من الوجهة التاريخية في أصل الدولة ونشأتها، وتطور النظم والنظريات

السياسية في العصور الغابرة ، وهو توجيه الحركات والاتجاهات السياسية حسبما يقتضي الرقيّ والتطور .

وعند ما يعالج علم السياسة الحاضرَ ، يحاول أن يصف النظريات والنظم السياسية القائمة ويقارنها ويبوّبها ، كما انه يعني فضلاً عن الحاضر بالمستقبل ، أي بما يجب أن تكون عليه الدولة في ما يجيء من الأيام ، بغية تحسين النظم والجهود السياسية على ضوء الأحوال المتغيرة والمستوى الأدبي المتبدل . وهو لهذا دراسة للدولة في الماضي والحاضر والمستقبل ، دراسة للنظم والمهام السياسية ، ودراسة للهيئات والنظريات السياسية . ومن النتائج التي يستقيها علم السياسة من دراسة الدولة ، يحاول أن يشرح طبيعة الدولة ، ويستنتج أسباب نموها ورقيها وتقدمها .

السياسة باعتبارها علماً

لقد قيل إن علم السياسة ليس « بعلم » بكل ما تشتمل عليه الكلمة من معانٍ ، وذلك لأسباب منها : كبر شأن مادته وتعقيدها ، وصعوبة تطبيق وسائل البحث العلمي الصارمة عليه ، واختلاف الخبراء على وسائله وقوانينه ونتائجه ، وعجزه عن التنبؤ بالتطورات السياسية في المستقبل . والواقع أن علم السياسة لا يستطيع أن يكون علماً تاماً لان قوانينه ونتائجه لا يمكن صوغها في نصوص دقيقة وافراغها في قوالب مضبوطة ، ولأنه لا يستطيع أن يتنبأ بالأحداث السياسية . أضف الى ذلك أن العلاقات الاجتماعية والسياسية دائمة التغير وما قد يعد اليوم صائباً ، يصبح في المستقبل خطلاً وضلالاً .

ولو أننا وصفنا العلم بأنه مجموعة من الحقائق أو المعارف تتصل جميعها بموضوع معين تكتسب بالتأمل النظامي وبالاختبار والدرس ، وتحلل وتبوّب في كتلة واحدة متحدة unified whole ، إذا سلمنا بهذا ، حقّ لعلم السياسة أن يطالب بلقب « علم » . ويمكن استنتاج القوانين العامة بدرس مادته درساً نظامياً وتطبيق نتائجه عند حل المشكلات السياسية . وكثيراً ما يعصى على السياسيين تطبيق النظريات العلمية تطبيقاً علمياً ، فيضطرون الى المصالحة [1] أو « الترقيع » أو الاهتمام بالمصالح الصغيرة المنفصلة ، بدلاً من النظر الى الحكومة نظرة علمية واسعة شاملة . ويرجع ذلك إلى تأثيرات الماضي أو الأحوال الحاضرة ، وإلى جهل الجمهور المطبق ، أو الذاتية وحبّ النفس .

و « علم » السياسة الذي يبحث عن دقيق الوصف والتبويب للهيئات السياسية ويحدد

(١) [illegible] تستعمل الآن [illegible] لتؤدي معنى Compromise بالانكليزية أي الحل الوسط .
راجع مقالة عن « المصالحة » في الهلال ، مارس ١٩٣٨ .

بالقوى التي تخلقها وتحكمها ، تختلف عن « فن » السياسة و « فلسفة » السياسة . ففن السياسة يهدف إلى تحديد قوانين السلوك ومبادئه التي يجب مراعاتها إذا أرادت الهيئات السياسية أن تسير سيراً حكيماً . أما فلسفة السياسة ، أو النظريات السياسية ، فإنها تهتم بالكليات لا بالجزئيات ، وتبحث في تعيين المبادىء الأساسية والرئيسية . وترمي فلسفة السياسة الفقهية juristic political philosophy إلى تحديد طبيعة الدولة كأداة تضع القوانين وتنفذها . وتقصد فلسفة السياسة الأخلاقية Ethical political philosophy إلى التثبت من طبيعة سلطة الدولة وعمالها على ضوء الأهداف التي وُجدت الدولة لتحقيقها وتُعرّف الدولة وفقاً لأغراضها وأهدافها، ويُحكم على نظمها وأعمالها حسبما تكون درجة بلوغها تلك الأهداف .

أساليب علم السياسة

ينبغي على الباحث في الظواهر السياسية أن يعمل دون أن يستعين بالأجهزة الميكانيكية كسائر العلوم ، ولا يستطيع أن يتكهن بالوقائع السياسية الموضوعة تحت البحث ، وليس لهذه الظواهر استجابات في فترات منتظمة ، كما إن المواد العلمية التي يناط بدراستها وبحثها تتأثر بأعمال الأفراد والجماعات، ولا يمكن التنبؤ بها أو توقعها. ويجب عليه كذلك أن يتجنب الحجج الأولية « a priori »[1] والتعاليم الغامضة أو القاطعة القائمة على التفكير الاستنتاجي

ومن أساليب بحث الدولة ودراستها ما يلي :

أولاً : أسلوب الملاحظة Observation وهو يدرس دنيا الحياة السياسية من جديد . ويحاول أن يكشف حقائق التنظيم الحكومي والنشاط الحكومي ، إما بالاتصال المباشر بالقائمين بهذه الأعمال أو بدراسة الاحصاءات . وينبغي أن يكون « الملاحظ » واثقاً من مصادره وأن يتجنب التعميمات والقياسات السطحية وأن يختبر العلاقة بين الحقائق المختلفة .

ثانياً : أسلوب التجربة . ويجوز استخدامه في حيّز محدود لأن الحكومات ما فتئت تغيّر سياسة الدولة . وكل قانون جديد ، وكل مؤسسة جديدة ، وكل سياسة جديدة ، هي تجربة ، سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه . وقد تؤدي ملاحظة نتائج التغييرات الى إجراء تعديلات جديدة ، وتقليد المجهودات الناجحة ، واستبعاد ما أخفق منها .

ثالثاً : الأسلوب البيولوجي ، وهو يقابل بين الدولة والجسم الحيّ ، ويصف كيان الدولة ومجال أهدافها وفقاً لمبادىء علم النبات ووظائف الأعضاء ، ويوجه رقيها حسب نظرية

(١) يرى بعض الكتاب أن يترجم « a priori » بالحقائق الفطرية أو القبلية ، ومن هؤلاء الاستاذ عبد الكريم الأحمري . راجع مقال توماس كيلا في الرسالة العدد ٦٤٦

التطور . ويسفر هذا الأسلوب عن مقارنات ذات شأن ، غير انها ينبغي أن تستخدم بحرص شديد لأن قوانين النمو والتحول التي تتحكم في الأجسام الحية لا تنطبق على الدولة .

رابعاً : الأسلوب النفسي : وهو يحاول أن يفسر الظواهر السياسية بوساطة المبادىء النفسية ، ولا سيما بدرس الدوافع الكامنة وراء تصرف الانسان وأعمال العقول المجتمعة والمؤتلفة والوسائل التي تؤثر في الرأي العام . وهو يساعد كذلك على شرح الأسس التي تنهض عليها الاحزاب السياسية والتي منها تنبعث المجادلات الدولية .

خامساً : الأسلوب القضائي أو القانوني : وهو يعد الدولة كأنها شركة قانونية وُجدت لوضع القوانين وتنفيذها . ويعدُّ هذا الأسلوبُ المجتمع السياسيَّ مجموعةً من الحقوق والالتزامات القانونية . وهو يحلل علاقات القانون العام بالدولة ، غير انه يتجاهل عدداً كبيراً من القوى الاجتماعية والفوق قانونية Extra-legal التي ترتكز عليها الدستور والقوانين الخاصة بالدولة التي تؤثر في العلاقات بين الانسان وأخيه .

سادساً : الأسلوب التاريخي : وهو يضع تعميمات استنتاجية مستخرجة من دراسة الوقائع التاريخية . ويحاول شرح ماهيّة الهيئات السياسية وما تؤول اليه عن طريق معرفة ما كانت عليه قبلاً ، ودراسة الطريقة التي بها تطورت . وعند استخدام هذا الاسلوب ينبغي على الباحث أن يتحرّى الدقة في اختيار المادة وتحليلها ، وأن يتجنب المحاباة والتحامل . وينبغي أن تكون الحقائق التي يجمعها صحيحة ، كما يجب أن يكون التفكير في هذه الحقائق منطقياً واضحاً .

سابعاً : الأسلوب المقارن : وهو يتصل اتصالا وثيقاً بالأسلوب التاريخي ، لأنه يحاول أن يكشف القوانين العامة والقرارات النهائية من دراسة ماضي الدولة بوساطة منهج من الاختيار والمقارنة والاستبعاد . وعند محاولة فحص القضايا العامة فحصاً دقيقاً ينبغي تجنب التشابه السطحي ، وجمع جميع عناصر المشكلة التي تُبحث ، ومراعاة التجاوز في بعض الحالات تجاوزاً معقولاً نظراً لتباين الأحوال أو الظروف .

ثامناً : الأسلوب التأملي : وهو يقرّر أن هناك مُثُلا عالية كاملة ، ويستنتج منها النظريات الخاصة بطبيعة الدولة وعملها وأهدافها ، ثم يحاول ايجاد تجانس بين نظرياته والحقائق الواقعة المستمدة من التاريخ والحياة السياسية ، ويغيّر نظرياته كما لزم الأمر . وخطر هذا الاسلوب يكمن في الاعتماد على أوهام صرف لا علاقة لها بالحقائق العملية . غير أنه إذا عُزز بالملاحظة الصائبة ، والنقد التاريخي ، والدراسة المقارنة ، أصبح ذا قيمة (١)

وديع فلسطين

(١) عول في كتابة هذا المقال على كتاب Political Science, By: R. G. Gettell

مكتبة المقتطف

نظرات في الحياة والمجتمع

تأليف الاستاذ علي أدهم — ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط — دار المعارف : ١٩٤٥

صديقنا الاستاذ علي أدهم من كتابنا القلائل الذين امتازوا بخلتين هما أوضح ما في العالم وأخص ما في الاديب . أما أوضح ما فيه من خلق العالم فنزعته الى التثبت والدرس والاكباب على البحث والتبسط في الاطلاع ليخرج فيما يكتب بنتائج منطقية أو نظريات لها قيمة حقيقية . أما أخص ما فيه من صفة الاديب فوضوح منهجه وطلاوة أسلوبه وتساوق عباراته رغم ما فيه من تعمق في الفكرة ونزعة نحو التجريد الفلسفي . وإنما نأنس في آثاره الادبية والاجتماعية هذه الصفات ، لأنها في الواقع انعكاسات حقيقية من خلقه . والادب اذا انعكس عن صفات خلقية صحيحة بعيدة عن الانتحال والتمحل والاصطناع ، فهو الادب المثمر الثابت الأصل الباسق الفرع .

قرأت لصديقي جل ما صدر عن قلمه المرن ، من مقالات أو كتب ، فكانت أوائلها كأواخرها ، أدب صادق التعبير متصل النفس متسق الفكر ، وعلى الجملة كان أدباً خصباً فيه من الحياة كل مقوماتها الخلقية بأن تصدر عن نفس اطمأنت للبحث وانصرفت الى الدرس ، وهي بعد في بحر لجي من هموم الوظيفة الحكومية .

أما كتابه هذا « نظرات في المجتمع والحياة » ففيه من اختلاف الصور ما يعبر أصدق تعبير عن الصور التي استحالت اليها نفسه ، وأصدق ما فيه مما يصدق عليه : قوله في فصل تمتع بعنوان حيرة المثقف جاء فيه :

« نحن نقبل في الحياة على دنيا قد حفلت بكنوز المعرفة وذخائر الفنون ، وبها نفائس الصور وروائع التماثيل ، وبدائع الموسيقى وغرر التصانيف ومبتكرات الحضارة ومستحدثات

العلوم ، وهذه الصور والتماثيل بنت حضارات متنوعة وثمرات عبقريات سامية وعبهودات ضخمة ، وقد صنفت الكتب في أزمنة متباينة ، وبلغات مختلفة ، وهي فيض قلوب كبيرة وصوب عقول راجحة ، وقد تضافرت القرون المتتابعة على تنمية هذه الثروة . ولعل أول واجبات التربية الحقة هو أن تفتح عيوننا على هذه الآثار وتلقننا الاعجاب بها وتبصرنا محاسنها ، وتدنيها إلى قلوبنا ، وتغرس في نفوسنا القدرة على استمرائها والاستفادة منها » . ولكن يرى الانسان : « قصر الحياة واستهدافها لسلطان المصادفة ، فيظهر له غرور المعرفة وخداع الأمل وعبث الطموح ويستوثق أن مصير آماله الزاهية في الاحاطة الشاملة للأصول ، وأن ظمأته إلى المعرفة لن يرتوي لها غليل » ....

هل أعذلك أيها الصديق بقول الشاعر .

وهت عزماتك عند المشيب ... وما كان من حقها أن تهي
وأنكرت نفسك لما كبرت ... فلا هي أنت ولا أنت هي
وإذا ذكرت شهوات النفوس ... فما تشتهي غير أن تشتهي

كلا : فأنت الأديب الصادق الأدب ، وصدق الأدب من صدق الحياة .

الفخري

في الآداب السلطانية — لابن طباطبا

راجعه عوض بك ابراهيم وعلي الجارم بك : نشرته دار المعارف

مؤلف هذا الكتاب مؤرخ باحث ناقد . وهو من أهل الموصل . وقد ألف الكتاب وقدمه لفخر الدين عيسى بن ابراهيم صاحب الموصل في القرن السابع الهجري .

والمؤلف مؤمن بفضل الكتاب ، داع الى الاقبال على الكتب حتى يستخرج الناس من كنوزها حكمة الدهور وفلسفة العصور .

لهذا ألف كتابه لصاحب الموصل ليكون هدياً له في حكمه ونوراً في سياسته ، وعرفه فيه بتاريخ الخلفاء المسلمين الى عصره شارحاً له سياستهم ، عارضاً عليه أحوالهم حتى يتخذ منها عُدَّة لحكمه وأداة لامارته .

ويمتاز هذا الكتاب بمزيتين : المقدمة الجليلة الخطر التي صدَّر بها المؤلف الكتاب . فهي دستور في سياسة البلاد وحكمها لا يخرم منه حرف ما دامت الناس ناساً والبلاد بلاداً والطباع طباعاً . والثانية ذكر أحوال الوزراء في كل خلافة بعد ذكر الخليفة نفسه ، وفي

ذلك تبصير بأحوال الرجال ووزن الأعمال وموازنة بين الهدى والضلال .

وكان غرض المؤلف من ذلك أن يبصر سلطانه بأخلاق الرجال في كل زمان حتى يختار لنفسه من البطانة من يصح الركون اليه .

وقد كان الكتاب حريًّا من محققيه بكتابة مقدمة عن المؤلف والأمير الذي أهدى إليه والعصر الذي أُلف فيه الكتاب والظروف التي دعت إلى تأليفه . ولكنهما اكتفيا بنشر الكتاب . وإذا كان داعيهما ذلك في طبعة سابقة فما كان ينبغي أن يفوتهما في هذه الطبعة الجديدة التي تعد بحق أدق طبعات الكتاب .

الوساطة بين المتنبي وخصومه

حققه الأستاذان محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي

ونشرته دار عيسى البابي الحلبي في ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير

شغل المتنبي الدنيا زماناً بشعره ، ولا يزال يشغلها الى اليوم . فقد كتب فيه في زماننا هذا الأساتذة محمود شاكر وطه حسين وعبد الوهاب عزام فشغلوا الناس بعد ألف عام بالمتنبي كما شغل به العرب من ألف عام .

وكان للمتنبي أنصار ، وكان له خصوم . وتعصب له فريق ، وغضّ من شأنه فريق . ووقف علي بن عبد العزيز الجرجاني من علماء القرن الرابع موقفاً وسطاً بين الفريقين . فكان كتابه « الوساطة » .

وليس (الوساطة) قاصراً على شعر المتنبي وحده . بل انه كتاب للنقد الأدبي العام . والحق انه من كتب النقد الأولى في الأدب العربي . فقد حلل المؤلف فيه أشعار القدماء والمحدثين وعرض للأصول الأدبية في عصره . وتكلم عن البيئة وأثرها في الشعر . وأورد كثيراً من محاسن الشعراء وعيوبهم .

* * *

وفي المؤلف ذوق جعل موازينه في النقد صحيحة على قدر زمانه . وكفاه فخراً أنه من طلائع النقاد في الأدب العربي .

وقد بذل المحققان جهداً كبيراً في مراجعة النصوص وضبط الأعلام . وهو جهد ليس بالضئيل ولا القليل على كتاب نفيس شوّهه تحريف الناسخين .

اسماعيل

مطبعة دار الكتب المصرية . نشرته وزارة المعارف

أحسنت وزارة المعارف بنشر هذا الكتاب الضخم عن الخديو اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته . فقد أنصفت اسماعيل العظيم وقد غلاه بعض المؤرخين .

ولم يتهيأ لجيل الماضي أن ينصف اسماعيل ويقدره حق قدره لأن اسماعيل قد سبق عصره وسبق معاصريه وخلفهم وراءه في غبار ركابه يتقدونه ويسرفون في نقده . فلما تقدم الزمن تقدمت نظرة الجيل الجديد إلى اسماعيل وقام نفر من الكرام يظهرون حسناته على وجهها الحقيقي كما فعل القاضي كرابيتس في كتابه اسماعيل المفترى عليه ، وكما فعلت وزارة المعارف المصرية اليوم .

ولقد صدق رفعة حسنين باشا حين قال مرة أن اسماعيل كالصورة الزيتية لا يُرى جمالها إلا من بعيد . . .

وكتاب اسماعيل أروع ما ظهر في مصر من الكتب من حيث الموضوع ومن حيث الأناقة في الطبع والاخراج وجودة الورق . ولا عجب فهو كتاب الملوك .

وفي الكتاب أبحاث طيبة عن نواحٍ متعددة من اسماعيل في السياسة المالية والتعليم والاصلاح والفتوح والكشف الجغرافي والقضاء وكل أثر من آثار اسماعيل .

اشترك في تأليف الكتاب لفيف من العظماء والوزراء ورجال العلم والأدب بالجامعتين فأفاض كل منهم في الناحية التي تخصص فيها . وجلوا جميعاً اسماعيل في أحسن مظاهره لا كما تحيف عليه السابقون .

والكتاب مصدر بكلمة للدكتور السنهوري وزير المعارف الذي كان له الفضل في اخراج هذا الكتاب على هذه الصورة الأنيقة تحية لذكرى اسماعيل .

البديع

لعبد الله بن المعتز الخليفة العباسي

شرحه وحققه الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي — نشرته مكتبة مصطفى البابي الحلبي — ١٣٥ صفحة من القطع المتوسط

أول من ألف في علم البديع عبد الله بن المعتز الشاعر والخليفة العباسي القصير العمر . وقد جمع فيه سبعة عشر نوعاً كما يقول ابن السبكي . وثقافة ابن المعتز ثقافة عربية خالصة لم

تشبها معرفة بالثقافة الأجنبية المنتشرة في عصره . لهذا كان كتابه تمثيلاً للذوق العربي الصراح .

وليس من هذا الكتاب إلا نسخة خطية وحيدة في مكتبة الاسكوريال بمدريد . وقد نشرها المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي سنة ١٩٣٥ باللغة العربية تحت اشراف لجنة تذكار جب الانجليزية .

وتكاد نسخ هذه الطبعة الفريدة تكون نافدة من أسواق الأدب على حين يحرص كثير من الأدباء على اقتناء نسخة من هذا الكتاب .

لهذا قام الأستاذ خفاجي المدرس بكلية اللغة العربية بطبع هذا الكتاب النفيس . وهي أول طبعة شرقية .

ومجهود الأستاذ خفاجي لا ينكر في أصدار هذه الطبعة . فقد شرح الكتاب وعلق عليه . وقابل بين الروايات المختلفة . وترجم للاعلام الكثيرة الواردة في النسخة الخطية . وشرح النصوص الأدبية الواردة فيه . وهذا عمل يقتضي جهداً ودأباً ورجوعاً الى المصادر العربية الأولى وخاصة البيان والتبيين للجاحظ ، وحماسة أبي تمام . وهما أهم مصادر ابن المعتز في عصره .

وليس الاكثار من المحسنات البديعية شائعة في هذا العصر الذي نعيش فيه . ولكن الكتاب على كل حال من الكتب العربية الأولى في البلاغة والنقد .

سعد بن أبي وقاص وأبطال القادسية

٢٢٤ صفحة من القطع الصغير — للاستاذ عبدالحميد جوده السحار — لجنة النشر للجامعيين

من ينكر أثر لجنة النشر للجامعيين في الحركة الأدبية الحديثة ، تلك الجماعة الجديدة التي بدأت في مايو سنة ١٩٤٣ فأخرجت لنا ما يزيد على ثلاثين كتاباً في القصص والتراجم .

وقد بدأ الأستاذ السحار هذه المجموعة بكتابه احمس فكانت باكورة خير ولمحنا منه فنا قصصياً أصيلاً في التاريخ المصري ثم ثنى بكتاب أبي ذر الغفاري . فبلغ من التهافت عليه أن أعيد طبعه .

وسعد بن أبي وقاص دراسة تاريخية لبطل القادسية على نحو قصصي يحبب العرب في تاريخ أبطالهم .

ولو قد كتب تاريخ ابطالنا أن يكتب على هذا النحو لخرج منه العرب بخير كثير .

فقد تابع المؤلف سعداً في بدء عهده بالاسلام وفي اضطهاد قريش المسلمين ، وفي أول سهم أطلق عن قوس سعد فكان أول سهم انطلق في الاسلام ؟

وفي أول معركة للاسلام صال فيها سعد بسيفه فانجلت عن نصر عظيم وفتح مبين .

والكتاب يغري كل فصل منه بقراءة لاحقه ، فلا يحبس القارىء نفسه حتى يتم الكتاب على نحو رفيع من القصص التاريخي .

قناة السويس

تعريب الاستاذ أحمد خاكي . سلسلة الفكر الحديث

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٨٢ صفحة من القطع المتوسط

تحتل قناة السويس مركزاً هامًّا منذ منح دلسبس عقد امتيازها في أيام سعيد الى وقتنا هذا .

وقد كانت لايطاليا مطامع في القناة قبل قيام هذه الحرب العالمية الثانية وخاصة بعد أن غزت الحبشة واستولت عليها . وكانت ترمي الى أن تشترك في ادارة القناة وتطالب بامتيازات في المعاملة .

لهذا قام المستر هيو سونفيلد بالرد على مزاعم ايطاليا ودعايتها مضطراً الى بيان وجهة النظر المصرية بوصف أن القناة ملك لمصر وهي صاحبة الحق الأول فيها .

والكتاب وصف تاريخي للقناة وخاصة في الفترة بين ١٩١٨ ، ١٩٣٨ — وقد تناول فيه المؤلف فصولاً عن القناة واستقلال مصر ، وما استفادته مصر من القناة ، ومشكلة البحر المتوسط ، وصيانة القناة ، وتنظيم المرور فيها ، وعن الحمولة التي تمر بالقناة وأثرها في التجارة العالمية .

وأقوى فصول الكتاب هو ما يدافع فيه المؤلف عن وجهة النظر المصرية أمام دعاية ايطاليا .

ولقد زاد المترجم باباً برمته عن مصر وقناة السويس من تأليفه هو لا من الأصل الانجليزي .

ويذكر المترجم انه لم ينشر قبل هذا الكتاب مؤلف واحد باللغة العربية في موضوع القناة ، ولكننا نذكره بكتاب « المقبقة في مسألة قناة السويس » للدكتور انجلو ساماركو وتعريب الاستاذ طه فوزي المطبوع بمصر سنة ١٩٤٠ (١)

---

(١) وللمرحوم طلعت حرب باشا كتاب قد بالعربية عن « قناة السويس » وآخر لعزيز خانكي بك

خادمك المليونير

للاديب عثمان نويه — مكتبة نهضة مصر — ١٤٠ ص من القطع المتوسط

قصة تصور ألواناً من المجتمع المصري ، وألواناً من الشخصيات بعضها يثير الضحك وبعضها يثير البكاء .

وللكاتب ريشة تجيد التصوير وفي أسلوبه العربي صحة ووضوح وتصريف للعبارات فما باله يؤثر العامية في كثير من مواطن الحوار .

نعم أن بعض شخصياته لا ينتظر منها حوار في لغة فصيحة ، ولكن كان يستطيع أن يبسط الحوار في ثوب عربي بدلاً من هذه العامية البغيضة .

محمد عبد الغني حسن

فن القصص

تأليف محمود تيمور بك — ١٣٦ صفحة من القطع المتوسط — مجلة الشرق الجديد

الأستاذ محمود تيمور بك يتصدر كتّاب القصة في الشرق ويقترن اسمه في طليعة الأسماء التي عالجت هذا الضرب من فنون الأدب . ولا عجب إذا كان صديقنا الاستاذ زيه الحكيم قد أطلق على تيمور بك لقب « رائد القصة العربية » بعد ما درس أقاصيصه ومسرحياته دراسة وافية تقوم على أسس علمية سليمة .

ومن أحدث التواليف التي أخرجتها المطبعة للأستاذ تيمور بك « فن القصص » وقد عالج فيه كثيراً من المشكلات التي تعترض أقلام القصّاص والأدباء . فبحث في صدر كتابه قضية اللغة العربية وعرضها عرضاً مفصلاً من جميع جوانبها وخرج بنتائج كبيرة الشأن . وتحدّث عن فن القصص ، ونشوئه ، وقصص العرب ، والقصص المصري الحديث ، والقصص الفنيّ ، وأثر القصص في تربية الشعب ، ونصيبه من مشكلات المجتمع ، والقصص المسرحي والسينمي ، ولغة المسرح ، وعوامل النجاح في تنشئة القاصّ ، ومستقبل القصص ، وأورد في نهاية الكتاب نماذج ثلاثة من أحدث أقاصيصه .

وفي المبحث الأول تصدّى المؤلف لقضية اللغة العربية وهي المشكلة الأولى التي تواجه حملة الأقلام في الشرق . فما فتئ الكتّاب يعيبون على العربية جمودها وعدم مسايرتها التطور والتحوّل الدائمين ، وينكرون عليها السكنات الجديدة التي تسللت اليها في السنوات الاخيرة .

(ومن أجود المباحث الحديثة التي عالجت قضية اللغة العربية بإفاضة كتاب صديقنا الاستاذ

سلامة موسى « البلاغة العصرية واللغة العربية » وقد تناولناه في عدد سابق من المقتطف)[1] وما برح كتّاب المسرحية ، يترددون بين استخدام العامية والفصحى ، والى أيهما ينحازون ، وأيهما يرضى بها القارىء ، وأيهما يرضى بها الناظر . أيجنحون الى استخدام العامية — لأن العامية لغة كلام بينما الفصحى لغة كتابة ، والشقة بين اللغتين واسعة — أم يكتبون حوار مسرحياتهم بالفصحى لأنها أبلغ وأروع ، فضلاً عن انها هي في الواقع اللغة الصحيحة دون سواها . وهل يُعدُّ استخدام الفصحى في كتابة المسرحية تكلفاً غير طبيعيّ ، أم يعدُّ ضرورة ينبغي على الروائي الاديب أن يلتزمها ولا يحيد عنها لأن عداها لا يُعتبر في عُرف الادب فنّاً .

***

هذه مشكلات لا ريب في أنها تواجه الذين يُقدمون للمرة الاولى على ممارسة الادب المسرحي والقصصي . ولقد لمست تلك المشقة بنفسي عندما عوّلت على نقل مسرحية « الأب » للكاتب السويدي الكبير أوجست سترندبرج [2] إلى العربية ، وآثرت بعد كبير تردد استخدام اللغة الفصحى لأني رأيت أن استخدام العامية نوع من الاستهجان والضعف . وفي علاج هذه المشكلات يقول صديقنا تيمور بك إن اللغة يجب أن تتطوّر وتماشي العصر الحديث . « ويحسن أن يكون موقفنا في مسألة المعرّب والمولّد موقف مرونة وموازنة وتقدير لملابسات كل لفظ ومدى الحاجة إليه ، فلنشتق ، ولنستنبط من العامية ، ولنستحي القديم من الألفاظ ، ولنعرّب الأجنبيّ متوخين في كل ذلك الحكمة . وحريّ بنا أن ندع ذلك للهيئة اللغوية المشرفة ، على أن تراعي سهولة الألفاظ وموسيقية الحروف ، وخفة الصيغة على السمع . ومن أمثلة الألفاظ الدارجة الموفّقة « العجلة » « والتسريحة » ... »

ويرى تيمور بك الملاج مشكلة اللغة العربية إجمالاً اتخاذ إجراءات ثلاثة . أولها : تزويد اللغة بألفاظ وتعبيرات جديدة بعضها أجنبي ، وبعضها من القديم المُستحيي ، وبعضها من العاميّ ، وبعضها من المشتقّ ، وبعضها من المعرّب . وثانيها : تبسيط اللغة بالاقتصار على الالفاظ المألوفة المأنوسة دون غوص على المهجور المجفوّ من الكلام . وثالثها : تيسير النحو بتصفيته والاقتصار على جوهره وحذف ما لا يطابق الشوّ المصري للغة . ورابعها : تعميم الضبط في كل ما يكتب ويطبع حتى يشبّ النشء منذ حداثته على القراءة قراءة صحيحة لا مأخذ عليها . وأعرب عن أمله في أن يوفق الباحثون الى كشف نوع من الضبط أيسر

(١) عدد يوليو ١٩٤٥ (٢) نشرته لجنة النشر للجامعيين — مكتبة مصر بالفجالة .

تداولا من الضبط الحالي ، يسهل تعميمه في جميع دور الطباعة — حتى مطابع الصحف والدوريات — بحيث لا يجد عمال صفّ الحروف أو القرّاء مشقّة في أداء مهمتهم .

وبعد ما فصّل الاستاذ تيمور قضية اللغة العربية ، انتقل إلى الحديث عن فن القصص حديث خبير تفهّم صناعته وسبر أغوارها ، وقابل بين الأقصوصة والقصة والرواية والحكاية والمسرحية ، وحدّد قواعد كتابة القصة ، وسرد نصائح للمبتدئين في ارتياد هذا الفن من الكتابة ، وبيّن كيف يؤثر القصص في تربية الشعب ويعالج مشكلاته ، وعرض وجهات النظر جميعها في كل من هذه المشكلات ، واستخلص آراءه في نهاية كل فصل ، وهي في جملتها آراء يغلب عليها السداد والرجحان .

***

والقاص القدير المكّن يستطيع دون مشقة أن يضع نفسه موضع شخوصه ، ويحس إحساسهم وشعورهم ، ويفكر تفكيرهم ، ويتصرّف تصرفهم ، ويتلفظ بألفاظهم ، سواء كان الشخوص أباطرة أم أدنياء ، من الانس كانوا أم من الجن ، أم من الأرواح الهائمة . ويجلو تيمور بك مقدرته هذه بالأقاصيص الثلاث التي أدرجها في القسم الأخير من مشتمل كتابه . « الأقصوصة الأولى » على المشنقة » وصف نفسي دقيق للحالات النفسية التي تنتاب مجرماً أثيماً ينتظر بين لحظة وأخرى تنفيذ حكم الاعدام فيه . ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن تيمور بك عرف هذا المجرم معرفة قرب ، ولازمه في صومعته ، فلم تغب عنه فكرة خطرت بذهن الأثيم ، ولا أفلتت من قلمه رؤيا عابرة مرت أمام مخيلته .

وأقصوصة « إحسان لله » لا يستطيع أن يكتبها إلاّ رجل عاش بين المتسولين ، وعرف أساليبهم في الاستجداء ، وتكفف الناس ، ودخل الى صميم نفسياتهم ، وعرف خباياها وطواياها واتجاه تفكيرها .

والأقصوصة الثالثة « في ظلمة الليل » أسطورة قديمة تكشف بدورها عن مقدرة تيمور بك على تعاطي ضروب شتى من القصص .

وبعد ، فكتاب « فن القصص » سفر جليل ، زاخر بالآراء التي تكشفت لتيمور بك بعد مطالعة وممارسة أربت على ربع قرن . وجميعها جدير بالتقدير ، خليق بالاعجاب .

وديع فلسطين

العلم الالماني أصوله ومراميه

« تابع المنشور على الصفحة ١٦ »

إذن لم ينحرف العلم عن قصده الانساني ، ولم يطلق رسالته الخالدة في خدمة الحقيقة والمعرفة والسعادة البشرية صدفة ، أو بحكم الظروف المحيطة به . ولكنه تحوّل بربريًا وحشيًا خاضعا لأوامر العاطفة الجارفة ، مسوقا بأهدافها المضللة ، عن قصد وتصميم . وكانت تستعر فيه نيران الحقد والتكالب في كل أدوار نضاله المتكتم المتستر ، حتى دارت رحى الحرب ، واصطلى بنارها العالم ، فإذا هو قد أعدّ بهذا الصراع الأسلحة العمياء ، كالالغام المغنطيسية ، والقنابل الطائرة ، والصواريخ الصاعقة وأواغين الشياطين . . .

ألا يستغرب خضوع العلماء النازيين لأوامر الوحشية والطغيان ، مع أن العلماء في كل جيل وقرن حملة مشاعل النور ، وسدنة الحرية الفكرية ، وأقوى المتعصبين إيمانا بحق الانسان في الحياة . ولما سئل العلامة ماكس بورن عن الأسباب أجاب بما ملخصه : ان ذلك يعود في أقوى أسبابه الى نقص في التراث الديمقراطي ، ونقص في التدريب الخلقي ، فالاختصاص — أي عزل أقسام المعرفة في سجون محكمة — وصل عند العلماء الالمان درجة خطرة أصبح هؤلاء فيها ضيقي الأفق ، لايشعرون بقوتهم ، وقيمة رأيهم ، إلاّ في ميادينهم الخاصة . وانهم ليفقدون الثقة بالنفس كلما خرجوا منها . وتسودهم العقيدة بأن لكل بحث ثقاته المختصين المدركين للامور ، المحيطين بها أكثر منهم . ولذلك يفضل كل فرد منهم أن يتحمل مسئولية الأعمال الأخرى غيره من الناس . فاذا ما نصب شخص نفسه خبيرا سياسيا (فوهررا) أي أقل المقاومة والمعاكسة ، واتجه اليه أرق النقد ، لا بل قدّمت بين يديه كل شعائر الولاء والاحترام والتقديس .

ولا ننسى أيضا أن النازي طهّر البلاد من العلماء الأحرار ، وقذف بهم إلى الخارج ، وأحلّ محلهم الشباب المتحمس المؤمن بمبادئه . وأما من حدّثته نفسه بعد ذلك بالخروج على النظام ، أو فضح الأسرار العلمية ، فقد كان الجستابو سيفا مصلتا فوق رأسه . وشبحا مرعبا يقض مضجعه . وإن لذلك العالم في السجون ومعسكرات الاعتقال مكانا فسيحا يذوق فيهما أمرّ ألوان التحقير والتعذيب ، وأقسى أنواع الازدراء والتنكيل .

اننا ننظر الى المستقبل بعين التفاؤل ، ونرجو أن لا يلعب العلم مرة ثانية دورا تهريجيا وحشيا ، ونرجو أن يحقق التعاون العلمي بين الشعوب أحلام السعادة ، ويحرر البشرية من العوز والفاقة والمرض والجهل .

السلط — شرق الاردن خليل السالم

فهرس

الجزء الاول من المجلد الثامن بعد المائة

١ سلامٌ على الصحراء : مهداة الى اهل الجزيرة العربية : اسماعيل مظهر

٢ مجمع اللغة العربية في بعض مصطلحاته الحديثة : اسماعيل مظهر

٩ العلم الالماني : أصوله ومراميه : خليل السالم

١٧ أساس القانون الدولي وطبيعته ومستقبله : صلاح الدين الشريف

٢٢ الرأي العام الاجتماعي في مصر : محمد الديب

٢٦ الدعاية : أسباب نجاحها : سليم تاوضروس الاسيوطي

٣٢ البزّ : الأب انستاس ماري الكرملي

٤١ غرام بين أديبين : الفريد دي موسيه وجورج صاند : حليم متري

٥٠ مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية : عبد الله امين

٥٦ أحساب الدولة الفاطمية : عطية مصطفى مشرفة

٦٠ المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق : السيد محمد رجب

٦٦ علم السياسة طبيعته وأساليبه : وديع فلسطين

٧٠ مكتبة المقتطف « نظرات في الحياة والمجتمع . الفخري في الآداب السلطانية . الوسطة بين المتنبي وخصومه . البديع . اسماعيل . سعد بن ابي وقاص . قناة السويس . خلاصة الميوتيرا : محمد عبد الرحمن . فن القصص : وديع فلسطين

ملحق بالمقتطف

١ — ٤١ فك الأغلال : بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية : عناصر عقد مؤتمر التعليم : لاسماعيل مظهر

نوادر المقتطف الشهرية

يناير ١٩٤٦

فك الأغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

تأليف

اسماعيل مظهر

رئيس تحرير المقتطف

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

مقدمة

اتجاه مبارك ذاك الذي حمل جملة من متفقهي هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين.

ومهما يكن من أمر تلك القرارات، ومهما يكن من أمر البحوث التي ألقاها في المؤتمر فئة من أهل الرأي، فانها جميعاً تنطوي على اتجاهات تنظيمية، لا تتعدّى تنظيم مدارج التعليم والنظر في بعض خصّيّاته، مع الاحتفاظ بالروح القديم الذي جرى عليه التعليم حتى الآن، أو على الأقل بأكثر ما في هذه الروح من ماهيات. بل إن الأمر قد تعدّى هذه الاتجاهات الى الكلام في مسائل تجريدية منها تنشئة حس الجمال. وليس لنا أن نتكلم في مثل هذا. فليس المجال مجال نقد لما تصدّى له المؤتمر، وانما المجال مجال القول في الغرض الذي ينشده التعليم، والمرمى الذي ترمي اليه التربية.

لا ريب مطلقاً في ان لكل عمل انساني غرض أصيل يرمي اليه. فما هو الغرض الذي نرمي اليه من التعليم؟ وما هي السبيل التي ينبغي أن نسوق فيها الشباب؟

ذلك ما لم يعرض له المؤتمر بطريقة واضحة. وعندي ان الغرض الأسمى من التربية هو تنشئة رجال مستقلين. رجال، الاستقلال أخص مميزاتهم. رجال مستقلون في الرأي والخلق وفي كسب الرزق الحلال، بحيث تضعف فيهم صفة التطفل الاجتماعي والتواكل، بقدر ما تقوى فيهم صفة الانتاج والأصالة.

أريد أن أقول ان التعليم الصحيح الذي يسد هذا الغرض، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية التي تكتنفنا في هذه البقعة التي نشغلها من كرة الأرض. كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه الفئة من الرجال، هو التعليم الذي يتصل بثقافتنا التقليدية.

هذه النظرية الجديدة المقتطعة من صميم بيئتنا، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظريته، فكّ الاغلال. والاتجاه نحو آفاق الحرية الاجتماعية السليمة من أمراض التطفل والجشع الاجتماعي.

الطبع الليّن الجانب ، بما فيه من قوة المقاومة السلبيّة ، الفرس والروم والرومان والعرب ، والمماليك والأتراك ، ولا يزال مستعدًّا لابتلاع خمس قيصريّة من أمثال هذه القيصريات العظام ، وهو قابع في عقر حقله الصغير ، وفي كسر بيته الطيني ، تاركاً دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حيناً آخر ، وما يهمه في الحياة من شيء . إلاّ أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار .

على أن الإطناب في مثل هذه الأشياء تحصيلُ حاصل . والاستطراد في ذكر الشواهد عَبَثٌ . لأننا نشعر شعوراً كاملاً بأن الأدب المصري اسم على غير مسمى . وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له . وأنا أقصد بالأدب المصري . الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا . الأدب الذي إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض مصر وسماء مصر وتاريخ مصر وعلى الجملة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في نفوسنا الرسيسة في طبعنا الطائرة في أرواحنا .

أما السبب في كل هذا فهو أننا بَعُدنا عن ثقافتنا التقليدية، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي وهِمْنا في فَلَوات لا نعرف فيها طريقاً يُسلك ، لا إلى الأمام لنصير أوربيين صرفاً . ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى . وإذن فنحن في التيه . ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من ظلماته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييما صحيحاً . وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية . حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يحفظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها تتكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان . فيه تهضم الآداب الأخرى ثم تمثل[1] أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا . وفي الوقت نفسه تطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتفسده . لأن أدبنا الحديث أضعف من أن يفرزها إلى الخارج بسبب التهدم الشنيع .

هذا من حيث الأدب . أما الوطنية المصرية ، ووصفها بأنها وطنية ظاهرية . فلا يرجع إلى حب الأغراب . ولا إلى حب التقليد بغير دليل يقام . أو حجة مقبولة . لهذا تتسم الوطنية

(١) يقصد الأحاسيس التي تشعرك جزءاً من الفطرة

ومهما يكن من أمر الباحث الأوربي في الشؤون المصرية ، ومهما يكن من علمه وتمكنه فيه ، فانه من المتعذر عليه كما قال مستر « مان » في تقريره ، أن يلم به المام المحيط بالحقائق الأساسية التي يحس بها المصريون أنفسهم ، من غير استعانة بآرائه أو نظريات . ذلك بأن لكل أمة إحساساً بما يحتورها من نقص ، لن يفقه الغريب عنها شيئاً من خصائصه ، الا بالجهد الشديد ، وطول التأمل والتفكير . مثل ذلك أن التقريرين اللذين وضعهما العالمان الأوربيان لم يمسا الحقائق الأولية في حياتنا الاجتماعية وعلاقتها بالتعليم ، ذلك في حين أن كل مصري يشعر شعوراً عميقاً بأن عصراً من عصور التطور الفكري قد آذن بأن تشرق شمسه في سماء مصر ، وأن عصراً آخر قد أخذ في الأفول . أضف الى ذلك أننا نشعر بأن حالاتنا الاجتماعية قد اتجهت في تطورها متجهاً ألقى على التعليم في مصر عبئاً جديداً لم يشعر به آباؤنا ، وقد نشعر بعض الأحيان بشيء من القلق ، وقد نشعر بأن هذا القلق قد يتضاعف بعض الأحيان ، حتى ليذهبُ بالبعض إلى اليأس من مستقبل آلاف العاملة الذين يتعلمون اليوم في المدارس وتخرّجهم الكليات زرافات كل عام . بل إننا أخذنا نشعر بكل ما شعر به الأستاذ هنري جيمس عند ما قال : إن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة الدعائم قوية الأركان في جمعية يكتب على المتعلمين فيها عيش الفقر والذلة ، لأمر فيه من البُعد عن حقائق الطبع البشري بقدر ما في محاولتك بناء هرم يرتكز على رأسه لا على قاعدته ، من بُعدٍ عن حقائق الطبيعة الكونية »[1] .

ولقد يُماري مفكر في أنّ ذلك الشعور العميق الذي يكتنف تفكير الكثيرين من المصريين ، إنما له أسبابه الغامضة البعيدة عن إدراك الذين لا يفكرون في التعليم إلاّ بقدر ما يفكرون في أداة لتخريج المتعلمين ، ولا يزيد خطره في نظرهم عن خطر آلة تخرج أحذية أو ثقافات تبغ ، في نظر عامل يجهل حقيقة الآلة التي يديرها ، ولا يعرف عنها إلا أمرين : شكلها الظاهر ، وعرضها الذي يجنيه منها .

على أن الأمر الذي أخذنا نجنيه من أداة التعليم عندنا قد حدثت عليه ظاهرتان : الأولى :

---

(١) العبارة هنا مترجمة بمعنى لا بحرف

أنّ طعمه أخذ يتغيّر ، والثانية : أن سنّه أخذ ينحطّ مع كثرة الانتاج . ولا شك في أنهما ظاهرتان يعلّل بهما كثير من الظواهر الاجتماعية التي تمر علينا في كل يوم صورٌ منها ، وأخصها كثرة المتعطلين من المتعلمين ، والجهد الفادح الذي يلقاه المجدّون منهم في تحصيل رزقهم الحلال .

ولا ريب في أن هذه الظاهرات ترجع الى أسباب أخذت تتجمّع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ، حتى أفضى بنا التطور الى الحالة التي تكتنفنا اليوم . ولما كان الغرض الذي أرمي اليه إنما يتجه الى وصف العلاقة التي تقوم اليوم بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والمهمة الكبرى المُلقاة على عاتق التعليم في تنظيم الحالة الاجتماعية ، ودرء الاخطار التي قد يتعرّض لها المجتمع المصري ، بقدر ما في مستطاع التعليم أن يدرأ منها ، وجب أن أظهر أولاً أن أشد الأخطار التي يتعرّض لها الكيان الاجتماعي في مصر من ناحية التعليم ، أن الشاب المتعلم في مدارسنا العليا يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ، باعتباره قوة لها حقيقة مستقلة عن القوى الأخرى التي تكتنفها . وقد يشعر بذلك الشاب المتعلم ، وقد يشعر به الذين يعلّمون أولادهم ، حتى لقد نجد أن بعض القادرين على التفكير ينظرون نظرة تشاؤم إلى المستقبل القريب ، وإنّ لهم في ذلك لحقّا ، وإن لهم في تشاؤمهم لاسباباً تبرّره وحقائق تعلّله ، ومن أجل أن نظهر تطوّر الحالات التي أفضت بنا الى هذه النتائج ، ينبغي لنا أن نذكر حقائق خمساً نرجع فيها الى تاريخنا بعض الشيء :

أولا : حُكمت مصر منذ أبعد العصور على نظام تباين الطبقات الاجتماعية ، وعلى أساس الفوارق في الحقوق العامة . غير أن الطبقات أخذت تتقارب حقوقها الطبيعية وتمحي من بينها الفوارق من عهد قريب ، فالكل الآن متساوون أمام القانون ، ولو نظرياً على الاقل ، ولكل مصري حق الانتخاب والحكم من طريق مجلس النواب . فأخذ مظهر وجود طبقتين ممتازتين في الحقوق المدنية يزول شيئاً بعد شيء . فلقد كانت مصر القديمة مكوّنة من ثلاث طبقات هي : الحكام والكهنوت والشعب ، ومنذ غزو الاسكندر وحكم البطالمة إلى حكم المماليك حتى بدء الاحتلال الانجليزي ، كانت هناك طبقات تختلف حقوقها وامتيازاتها . أما الآن فقد انتفت هذه الفوارق نظريًا ، وتقول نظريًا ، لاننا لا نزال

تشكو من بعض مساوئها ، بالرغم من أن أصغر فلاح في مُكنته أن يقاضي أعظم عَينْ في البلاد ، وأن يأخذ حقه منه إن كان له حق .

ثانياً : بالرغم من أن نظام الطبقات المتباينة في الحياة والحقوق ، هو النظام الذي أتبع في مصر منذ أبعد العصور، وبالرغم من أن حالة مصر الاجتماعية من خمسين سنة مضين كانت تكفل الاستقلال المادي لطبقتي ذوي الامتيازات والفلاحين معاً ، بأن تحمل طبقة الفلاحين وهي الطبقة العاملة ، عبء كفاية نفسها وكفاية حكامها ، بقدر الاستطاعة ، فإن الحالة الجديدة ، حالة التساوي أمام القانون في الحقوق ، قد أحدثت ظاهرة اجتماعية جديدة ، جعلها أن الفلاح قد خرج من كونه عاملاً لا حقّ له في ملكية الأرض ، إلى رجل حرّ له حق العمل متى شاء ، والانقطاع عنه متى أراد ، وله فوق ذلك حق الملك ، بل نقول إنه انتقل من عامل إقطاعي إلى رجل حرّ . فحدث بذلك تطور جديد .

ثالثاً : هذا التطور الجديد الذي حدث بتحرير الفلاح المصري ، وعتقه من نظام الاقطاع الذي ظلّ خاضعاً له طوال القرون ، قد قلب آية الحياة الاجتماعية في مصر ، فإن هذا الفلاح لم يكن ينقصه من شيء ليكون مستقلاً تمام الاستقلال في حياته إلاّ قانون يحميه ، ونظام اجتماعي يجعله يشعر بأنه قوة لها أثر في الحياة ، فلما وقع ذلك بالفعل أصبحت الطبقة الدنيا أي طبقة الفلاحين المحررين ، والتي كان عليها أن تحفظ استقلالها واستقلال الطبقة التي تعلوها ، سيدة نفسها ، وأصبحت طبقة الملاّك وأصحاب الجاه ، كما كانت في الحالة الأولى ، عبئاً عليها ، ولكن في صورة جديدة ، أخذت شكل صراع خفي بين الطبقتين .

رابعاً : ولقد انحصر مظهر هذا الصراع في طبقة تحرّرت من قيود النظام الاقطاعي : وهي الطبقة المنتجة العاملة بيدها ، فأصبحت مستقلة بنفسها ، وهي طبقة قادرة على الحرث والغرس والحصاد في بلاد لن يزرعها غيرها ، ولن ينتفع بها غيرها ، فهي مستقلة ما دامت من فوق الأرض التي يغذيها النيل بشرايينه الحيية ، وهذه الظاهرة الجديدة أحدثت ظاهرة أخرى .

خامساً : تكتلت الطبقة الأخرى ، طبقة أصحاب الجاه على مطلب آخر تتقي به النتائج التي تترتب على استقلال الطبقة العاملة ، ولم تجد من وسيلة أقرب من تعليم أولادها ليكونوا

حكام البلاد . ولكن صفة الفلاحين أخذت تزاحم الطبقة الأولى في هذا المضمار ، ومضى الأثرياء منهم يدفعون أولادهم ليكونوا حكاماً ، فنجحوا . ولكن بعد أن مُلئت الحكومة بما تحتاج من حكام وكتبة ، قام شعورٌ جديدٌ بأن أولاد موظفي الحكومة والأثرياء الذين أخرجوا أولادهم من عبء الفلاحة إلى محيط العلم ، أقلُّ استقلالاً مع تعلمهم من أبناء الفلاحين الجهلاء . وأصبحنا الآن والموقف بين متعلم متعطل يتطلع إلى مرتب أبيه أو ثروته ليعيش ، وفلاّح جاهل لا عمدة له في الحياة إلاّ خبرته الموروثة في فلح الأرض وقوة عضلاته وعراته وفأسه وماشيته ، فهو رجلٌ مستقل تمام الاستقلال في الحياة ، على العكس من المتعلم المتعطل . فإذا كانت الغاية من التعليم تخريج رجال مستقلين يكافحون في الحياة كفاح المنتج ، لا كفاح المتطفل لكفاح غيره، رأينا أن التعليم لم يفز ببلوغ الغاية الأخيرة منه ما دمنا نرى أن ابن الفلاح بخبرته الموروثة مستقل في حياته منتج بعمله ، في حين أن المتعلم يفقد مع التعليم استقلاله الذاتي ، ويتطلع دائماً إلى حياة الركود ، لا إلى حياة الكفاح التي يهيء له تعليمه طريقها الواجب .

على أن قليلاً من التأمل في هذه الإلمامة التي ألممنا فيها بأوجه التطور الاجتماعي الذي انتابنا منذ خمسين سنة خلت ، يحمل المفكر على المضي خطوة أخرى في تأملات إذا أحطنا بها ، نكون قد فرغنا من التمهيد للفكرة التي نريد أن تكون الدعامة التي يقوم عليها أساس التعليم في مصر فنرى ما يأتي :

أولاً : إن طرق التعليم التي عكفنا عليها إلى الآن شطرت الأمة معسكرين ، الأول : معسكر المتعلمين على القواعد الأوروبية التي اتبعناها في مدارسنا ، وخرجوا بهذا التعليم عن جوّ ثقافتنا التقليدية ، فأصبحوا نصف مصريين ، والثاني : معسكر الفلاحين الذين أبعدناهم عن الثقافة الحديثة ، وحافظنا على ثقافتهم التقليدية ، فساروا بذوقهم في القرن العشرين وبعقليتهم في مصر الفرعونية (١) .

ثانياً : كوّنا بهذا معسكرين غير متجانسين ، بل مختلفين تمام الاختلاف ، بحيث لا تجمع

(١) قد يظن القارئ أن الشبان والفتيات الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية قد يؤلفون معسكراً ثالثاً . ولكن [illegible] يختلف [illegible] خريجي مدارسنا المصرية والذي تخرجه المدارس الأجنبية ، من حيث الانفصال عن الثقافة التقليدية [illegible] ولا [illegible] .

بينهما من رابطة الأمّ الرابطة الطبيعية التي هي رابطة الدم ، فكنا بذلك أشبه بالمستعمر الذي يرغب دائماً في أن يزيد من الصدوع التي تفصل بين طبقات الأمة ، لا أشبه بالمصلح الذي يعمل دائماً على أن يرأب تلك الصدوع ، ويقرّب بين الطبقات حفظاً للتوازن الاجتماعي . ولا شكّ في أن هذه السياسة تؤدي بطبعها ، وعن غير قصد ، الى حرب الطبقات التي نحن مقدمون عليها حتماً ، اذا استمرّ التعليم على نماذجه الحاضرة ، وأخذت تلك الصدوع والفوارق تزيد عاماً بعد عام .

ثالثاً : دليلنا على هذا أن ابن الفلاح إذا أثرت فيه الثقافة الحديثة سواء أكان تعليمه في مصر أم في إحدى جامعات أوربا ، أصبح لا يتنشق في جو بلاده نسيم الثقافة التي نشأ فيها .فتلحظ فيه روح التبرّم بأبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، وتأنس فيه نزعة قديمة تدفعه دائماً الى حب العودة الى الجو الذي نشأ فيه ، فتراه قلقاً غير مستقر ، هدّاماً لا بنّاء ، يريد لو تتاح له الفرصة ليعود الى الجو الذي كان فيه ، فإذا أعيته الحيلة ، كما يحدث دائماً ، واضطر الى البقاء في جو بلاده هجر الريف ، مرباه الأصيل ومركز آبائه وأجداده منذ قرون طويلة ، ومنشأ تقاليده منذ أزمان لا تعيها الذكريات ، ليسكن مدينة من المدن ، فيفضّلها مع عيش الفقر والعوز ، على الريف مع عيش الراحة والهناءة ، وتراه ينزع الى الفراغ والدعة في مدينة ، دون العمل الذي هو أجدر بحياة الرجولة في الريف . ومن هنا تتكوّن الطبقات المتبرمة بالحياة ، العاملة على الهدم دون الاصلاح ، النزّاعة الى الافكار المتطرفة والثورات . أولئك الذين عناهم العلامة هنري جيمس بكلمته التي سقناها من قبل .

رابعاً : وأنت أينما ولّيت وجهك رأيت أثر المعسكرين اللذين كوّنهما التعليم المصري ظاهراً جليّاً . فأنت تنتزع الولد من حضن أبيه الفلاح وأمه الفلاحة ، فكأنك تنزعه من حضن « مصر الفرعونية » لتنشّئه في حضن « مصر الاوربية » وتخرجه بعد ذلك قاضياً أو عاملاً أو مهندساً أو تاجراً أو رجل إدارة أو غير ذلك ، ولكن بروح أوربية تكسوها ثياب مصرية شفافة فضفاضة ، وبالأحرى تخرج رجالاً انبتّت صلتهم بتقاليدهم الثقافية القديمة ، وأنت في دور العدل ، وفي المتاجر ، وفي مراكز الادارة ، وفي عيادة الطبيب ومكتب المهندس ، واقع في كل دقيقة على مظهر من مظاهر التفرقة بين المعسكرين . فالفلاح

البعيد عن مدنية المدن . وبالأحرى البعيد عن جوّ الثقافة الأوربيـة الذي نشأ فيه القاضي والمحامي والتاجر ومأمور المركز وممثلو الادارة وطبيب القرية ، يمثل معسكر مصر الفرعونية ، أما هؤلاء فانما يمثلون « مصر الأوربية » . ولاشك في أن هذا مظهر من مظاهر الانحلال الاجتماعي ، لا يسأل عنه في مصر شيء ، بقدر ما يسأل التعليم ، وأساسه الذي يقوم عليه .

خامساً : بالرغم من أن المتعلم قد نزع بفكره نزعةً أبعدته عن ثقافة آبائه التقليدية ، فقد أثرت تلك الحال في مزاجه وتصوراته ونظرته الفنية في الحيـاة ، تلك النظرة التي يجب أن تكون مصرية صميمة ، ويجب أن نحافظ عليها نقية على سجيتها لنكون مصريين جديرين بالمصرية ، وكان من نتائج هـذا أن المتعلمين يفضلون أقذر قرية أوربية على ريفنا الجميل ، وبحيراتنا الفاتنة ، حتى لقد تقوى النزعة الأوربية فينا على وحي النيل نفسه . والسبب في هذا إننا كنا في خلال الخمسين عاماً الماضية كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، إذ انتزعنا من أرواح ناشئتنا « مصريتها » ولم نترك فيها من المصرية إلاّ لون البشرة والتحـام بالروح « الأوربيـة » فلم نبق مصريين كأهل الريف ، ولم نستطع أن نكون أوربيين كفتيـان « پيكادلي سركس »[1] .

سادساً : بدأت هذه الحال تؤثر في مرافقنا الحيوية ، حتى لقد نزعنا إلى القول بأن كل ما هو أوربي جميل ، وكل ما هو مصري رديء ، وكل فكرة مصرية لعب ولهو ، وكل فكرة أوربيـة جدٌّ ورجولة ، وكل فن مصري بدائي وغير متفق وروح العصر ، وكل فن أوربي ، مهما كان فيه من بعد ونفاد مع نزعاتنا وتقاليدنا المصرية ، بل ومع آدابنا المرعية والعرف الانساني ، حضارة وتمدين . وشملت هذه الحال فتياتنا وفتياننا ، فألسنتهم لاتتحرك إلاّ بكل ما هو أوربي غربي ، وقلوبهم لا تهتز إلا لكل ما هو بعيد عن المصرية .

ولا شبهة في أن المعسكرين يتهيآن الآن : الأول للعمل على خراب الريف ، والثاني لا حول له ولا قوة ، فسوف ينهزم ليترك الريف خراباً . وإنما يخرب الريف بخراب القلوب التي يجب أن تؤمن بأن الريف هو مصر ، وان مصر هي الريف ، وان المدن أسواق

(١) Piccadilly Circus : ميدان في لندن

لهذا الريف لا أقل ولا أكثر . انما نخرب الريف بأن نحب المدينة ونهجر الريف ، فكأننا هجرنا مصر ، ولا مخرج لنا من هذا الا بأن نصل ثقافتنا الحديثة بثقافتنا التقليدية ، فيكون المصري فلاحاً مصرياً روحاً ، ونزعةً وخلقاً ، ثم قاضياً وعاملاً وطبيباً ورجل ادارة من بعد ذلك . يجب أن تكون ماهيتنا مصرية وأعراضنا أوربية ، لا أن نعكس الآية بأن نعمل أولاً على محو مصريتنا . فاذا تمّ لنا ذلك رحنا ننبه بأننا أتينا بأعراض أوربية ولقحنا بها ذوات لا ماضي لها ، وبالاحرى لا ماهية لها .

تلك مقدمات لا بدّ منها اذا أردنا أن نبحث حالتنا الاجتماعية من جهة علاقتها بالتعليم وسنرى كيف يمكن أن نستفيد منها .

***

أظهرت في العبارات السابقة الوجوه التي تربط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، وعددت كثيراً من التأملات التاريخية التي قد يكون لها اتصالاً ، كبيراً أو صغيراً ، بالحالات الجديدة التي تكتنفنا ، غير أن الاقتصار على تعديل وجوه الارتباط بين التعليم والحالة الاجتماعية ، والقول بأن التعليم يجب أن يتجه اتجاهاً اجتماعياً، أمر يجب أن يعزز باظهار المخاطر الشديدة التي يتعرض اليها كياننا الاجتماعي ، من جراء الفصل بين سياسة التعليم ، وبين ملابستها الاجتماعية .

ولقد ظهر في العهد الأخير أن القائمين بأمر التعليم قد اضطروا في مواقف عديدة أن يتجهوا الى معالجة بعض الأمور علاجاً قائماً بعض الشيء على طبيعة الحالات الاجتماعية . واني لآسف إذ أقول إنهم لم ينجحوا فيما قصدوا اليه . وليس السبب براجع الى تصور منهم، أو تقصير عن أداء واجباتهم كاملة ، وإنما يرجع في الحقيقة الى أن سياسة التعليم الحاضرة لا تواتيهم بكل الاسباب الضرورية التي تمكنهم من تنفيذ برامج تتفق وما تتطلب الحالة الاجتماعية من صنوف العلاج . ولا أريد أن أعدد منها حالات بذاتها ، وإنما أريد أن أبحث في مجمل الظواهر التي تترتب على الفصل بين سياسة التعليم والملابسات الاجتماعية ، قدر ما تتيح لي تجاربي القليلة

كتب الفيلسوف هربرت سبنسر في أواخر القرن الفارط مقالاً عنوانه « الكائن الاجتماعي » شبّه فيه بنية الاجتماع الانساني بكائن متعضّن ، وأخذ يقيس الظواهر المتقابلة فيهما ويوازن بين حالات خاصة في جسم الفرد وجسم المجتمع . ولا شك في أن هذا الفيلسوف الكبير قد غفل عن أمر ذي بال ، جعل بحثه هذا محتاجاً الى كثير من التحوير بل لا نبالغ إذا قلنا ان غفلته عن ذلك الأمر ، قد أثرت في النتائج التي حاول الوصول اليها فجاءت مفككة غير موصولة ولا مؤدية الى فكرة محدودة ينتهي اليها البحث . ذلك بأن بين الحي والكائن الاجتماعي فروقاً رئيسية تميز بينهما تمييزاً لا يقف عند حد الظواهر ، وإنما يتعدى الى التكوين الوظيفي فيهما . وقد يعلم الذين يدرسون علم الاحياء ، أن الحيّ يتكوّن من خلايا دقيقة هي وحدات بسيطة التركيب تحتوي على نواة هي سر الحياة . ولكن تجمّع هذه الوحدات البسيطة التركيب ينتج حيًّا عويص التركيب معقد التكوين جهد ما تتخيل . ذلك في حين أن الكائن الاجتماعي إنما هو كلٌّ بسيط التكوين ، يتركب من وحدات غاية في التعقيد . وعلى معرفتك هذا الفرق الوظيفي ، يتوقف وصولك الى النتائج الصحيحة . فالخلايا لا قوام لها ولا حياة بغير اندماجها في بنية الكائن الحي . أما الوحدات (الذوات العاقلة) التي يتركب منها الكائن الاجتماعي ، فكلما كانت أكثر استقلالاً عن ذلك الكائن برز أثرها وتميزت وظيفتها واستبانت قيمتها ، ورجُل فردها ، وأصبحت قوة قادرة على التأثير في الكائن الاجتماعي بما يحفظ حياته الاجتماعية ، ويحرّكه نحو الرقي الاجتماعي ، ويبث فيه روح التطلع الى الارتقاء المدني ، وبالجملة على جعله كائناً اجتماعيًّا ممتازًا بأثره العلمي في الحياة . ذلك على الضد مما لو اندمجت هذه الوحدات العاقلة في بنية الكائن الاجتماعي . فانها إذ ذاك تفقد استقلالها وقوتها على التأثير بالعمل على رقي الجماعة ، لأن اندماجها هذا إنما يسلبها القدرة على التفكير والتأمل في حقائق الاشياء ، ويفقدها أخلاقها الشخصية ، ويرجعه عام يدعها فيما يسميه الاجتماعيون عقلية الجماهير .

هذه حقيقة أولية ، على ما فيها من تعقيد وحاجة الى الفهم من الضروري أن نعيها وأن نجعلها نصب أعيننا كلما فكرنا في وظيفة التعليم باعتباره عاملا من عوامل استقرار الحالات الاجتماعية في كل أمة من الامم . أما وقد وعيناها فلنا أن نتساءل : أفي التعليم عندنا بإخراج

رجال فيهم من الاستقلال الخلقي والعقلي ما يجعلهم في المستقبل قوى مؤثرة في الكائن الاجتماعي ، أم على العكس من ذلك ، يخرج رجالاً قنعاً يكتفون من الحياة بالاندماج في جسم الكائن الاجتماعي ، فيظلون طوال أعمارهم مغمورين في عقلية الجماهير ؟ وإني لآسف إذ أقول أن تعليمنا بعيدعن أن يخرج رجالاً مستقلين على النمط الذي تتطلبه طبيعة الحالات الاجتماعية الجديدة ، التي أخذت تشعرنا بأننا مقدمون على انقلابات فكرية خطيرة.

إذاً فواجب التعليم ينبغي أن ينحصر في إخراج رجال مستقلين بعيدين عن التأثر بروح الجماهير . وتكوين استقلال الفرد ، يجب أن يكون بداءة التعليم ونهايته . أما العمل على شحن العقول بشتى المعلومات وتكوين ملكات خاصة في الأدب والفن ، فلن يكون لها من أثر في الحياة ، ولن تقوّم من عوج الكائن الاجتماعي ، ما لم يسبقها الاستقلال الذاتي ، وتدريب الملكات الخاصة على مماشاة ما تتطلبه مقتضيات ذلك الاستقلال .

ولقد أظهرنا من قبل أن ابن الفلاح أكثر استقلالاً في الناحية العملية ، من المتعلم الذي فقد استقلاله الذاتي ، بحكم الظروف التي نشأ محاطاً بها . غير أن استقلال الفلاح العامل استقلال ناقص ، اذ هو استقلال أشبه بالاستقلال الحيواني منه بالاستقلال الانساني ، ذلك بأن عدته في هذا الاستقلال تقوم على قوة عضلاته وعلى صبره واحتماله ورضاه بمحيطه الذي يعيش مكتفياً به . وعامة ذا ليس فيه شيء من مؤهلات الاستقلال الانساني ، وانما هو استقلال يشارك فيه الفلاح كثيراً من الحيوانات . وعلى ذلك نجد ان ما عندنا من مكملات الاستقلال الفردي عند الفلاح ، تنقصه الناحية الثقافية التي تمكنه من أن يصبح ذا أثر عملي في تكييف حالات الكائن الاجتماعي . ولكن هذا الاستقلال مهما كان فيه من ضروب النقص فهو استقلال على كل حال . أما المتعلم المتعطل فحالته تناقض هذه الحال . فان تعليمه لم يمكنه من أن يكون مستقلا من ناحية الثقافة ، في حين أن نشأته ومحيطه قد سلباه ناحية الاستقلال الأخرى .

***

أما الأسلوب الذي يجب أن ينحى في التعليم حتى يكون أداة صالحة لتخريج رجال مستقلين ذوي أثر في تكييف حالات الكائن الاجتماعي ، فسنفرد له صفحات خاصة . وسنقصر

كلامنا الآن على المخاطر التي يتعرض لها كياننا الاجتماعي من وجود فلاحين استغلوا حيوانياً ومتعمين فقدوا كل ضروب الاستقلال .

***

على الرغم من أن الأخطار التي يتعرض لها مجتمع تناصرت عليه كل هذه الظواهر الكثيرة المتعددة ، فإن أعظم هذه الأخطار وأشدها أثراً في مستقبله ، إنما حدث بما يدعوه الاجتماعيون « التطفل الاجتماعي » . والتطفل الاجتماعي حالة ترهق فيها طبقات غير عاملة طبقات عاملة بمطلوبات حياتها ، ولهذا التطفل مظاهرُ عديدة أخبثُـها أن تكون الطبقة المتطفلة هي بذاتها صاحبة السلطة العليا في المجتمع ، كما حدث في أوربا في خلال القرون الوسطى ، وكما هي الحال في كثير من ممالك الشرق في حالته الحاضرة . والويل لمجتمع تسود فيه هذه الحال .

التطفل حالة طبيعية لا سبيل إلى نكرانها . فهنالك حيوانات تتطفل على نباتات ، ونباتات تتطفل على حيوانات ، وقد يتطفل حيوان على حيوان أو نبات على نبات . فهو ظاهرة تكاد تشمل كل نواحي العالم الحيّ ، وتحكم في الكثير من مظاهره الجلى . غير أن نظرة واحدة في هذه الحقيقة الطبيعية ، تظهرك على أن التطفل حيثما كان ، وأيّـا كانت وسيلته ومظاهرهُ ، لن ينتج إلاّ هدماً في الحياة ، ولن يبرز إلاّ فساداً ، ولن يؤدي إلاّ إلى إرهاق شامل في القوى الحيوية ، تختلف درجاته ومظاهره ونتائجه باختلاف الظروف ، وقلما يستطيع عالم طبيعي أن يحتوي تلك الظروف التي يتجلى فيها عمل التطفل في عالم الأحياء . فإن ذلك من الأشياء التي يستعصي على العلم تحديد مظاهرها عامة وخاصة ، وفعل كل متطفل في مختلف الظروف ، على كل متطفل عليه في متباين الحالات . وإنما يستطيع الأحيائي أن يدرس ظواهر التطفل في حالات يقف عليها ، وأن يدرس أثر الحي المتطفل في بنية الحي المتطفل عليه ، محصياً في كثير من الحالات أوجه العلاقة بينهما ، وتأثير دورة حياة الحي المتطفل في حاضنه .

ولن يعدو العالم الاجتماعي هذه الحال عينها ، فليس في مستطاعه أن يحصي أوجه التطفل الاجتماعي في مجتمع بعينه ، ولا أن يدرس الحالات درساً تتوفر على دقتها وتدرجاتها التي

تكفل له الوصول إلى نتائج مقطوع بصحتها قطعاً تامًّا . والعالم الاجتماعي أضعف وسائل من العالم الطبيعي . فإن هذا بين جدران معمله ، يستطيع أن يحصر الحالات ويحدد الظواهر في حين أن زميله الاجتماعي ، إنما يتأمل من حالات عامة غير محصورة ولا محددة ، تحديداً تجعل الحكم القاطع على أصولها وظواهرها أمراً سهلاً هيناً . غير أن هذا كله لن يحول بين الباحث الاجتماعي وبين تمييز الحالات الكلية التي يتخذ درس مظاهر التطفل الاجتماعي وسيلة إلى اكتشافها .

من الحالات الكلية في التطفل الاجتماعي ، بل ومن أظهر تلك الحالات أثراً في الجماعات الحديثة عامة ، وفي مصر خاصة ، تسلط غير ذوي الكفايات ، وإن شئت فقل المتطفلين ، على موارد ما تنتج الأيدي العاملة من ناحية ، وعلى إنتاجها نفسه من ناحية أخرى ، من غير أن يكون لهؤلاء المتطفلين أي ضلع في تكوين المورد أو في الانتاج . ومن هنا تحدث حالة من حالات التطفل الاجتماعي تستنفد فيها أيد متعطلة ثمرات الجهود التي تبذلها أيد عاملة ، بغير أن تنال الأيدي العاملة من ثمرات جهودها ما يكفي لحفظ حيويتها أو قدرتها على العمل والانتاج . فإن من شأن المتطفل أن يجتهد في استغلال حاضنه بكل صور الاستغلال وأن يبلغ من الانتفاع بحيويته جهد ما يستطيع ، وكلما قلت قوى المقاومة في الحاضن ، ازداد المتطفل شرهاً وبأساً ، حتى ينتهي الأمر بما يسميه الاجتماعيون « بالتنكس الاجتماعي »[1] وهي حالة تتساوى فيها طبقات المجتمع لا من حيث الكفايات العلمية ، ولكن من حيث العجز عن العمل المنتج . وما لهذا الأمر من نتيجة إلا الفوضى الغامرة ، ولا ينكر أحد أن في مجتمعنا هذه الظاهرة الخبيثة . فالأيدي العاملة لا تنال من منتوج عملها ما يكفي للاحتفاظ بحيويتها ، والأيدي المتعطلة تبدد ثمرات تلك الجهود . وعلم ما يترتب على ذلك عند الله .

ومن تلك الحالات هجر الريف والعيش في المدن . ولقد بحث هذه الظاهرة كثير من الكتاب منهم « ادمون ديمولان » الفرنسي والأستاذ « ستيفن » الانجليزي في بحوث مستفيضة عالجوا فيها الحالات التي تشأ في فرنسا وانجلترا ، وعفوا بعض الشيء عن

(1) Social Parasitism

حالات نشأت في غيرها من البلدان في أوربا . ولا جرم أن هذه الحالات تتشابه ، فالأسباب التي تدعو الفرنسي أو الانجليزي الى هجر الريف والاقامة في المدن ، أو بالأحرى حب التحضّر (بمعنى المعيشة في الحواضر) تكاد تكون نفس الأسباب التي تحمل المصري على أن يفعل ذلك . غير أن النتائج تختلف باختلاف البلدان ، على مقتضى ما في كل شعب من الاستعداد والصفات ، وفي الأكثر على مقتضى الثقافة التقليدية التي يختص بها كل شعب من الشعوب .

ولسوف نبين عن فكرتنا في أثر الثقافة التقليدية في الكيان الاجتماعي لكل أمة من الامم . ونكتفي الآن بأن نقول بأن شعباً كالشعب المصري ، الزراعة ثقافته التقليدية منذ أبعد عصور التاريخ ، لا بدّ من أن يتأثر بزيادة الميل الى التحضر ، تأثراً عظيماً لا يحسه شعب آخر ثقافته التقليدية غير زراعية . بل على العكس من ذلك ، أعتقد أن الشعوب التي تكون ثقافتها التقليدية صناعية أو تجارية ، يجب أن تحتمي بحياة التحضر صيانة لصالحها . أما تحضر شعب ثقافته التقليدية الزراعة ، فتلك هي الطامة الكبرى على كيانه الاجتماعي ، وتلك هي الثغرة العظيمة الى أبشع صور التطفل الاجتماعي .

ونحن نعلم علم اليقين بأن مدننا المصرية مدنٌ غير صناعية بالمعنى المفهوم من ذلك في أوربا . بل أعتقد ، وأظن انني اعتقد بحق ، أن مدننا ليست إلاّ أسواقاً تستهلك فيها منتوجات الريف ، وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تظهرنا على أن ميلنا الى التحضر ، مع التعطل عن العمل ، يرهق المنتج ويرهق السوق المستهلكة ، لأن المتعطل في الواقع عبء على الجمعية ، ذلك بأنه قوة مستنفدة لا قوة منتجة من ناحية ، ولأن الحاجات التي يستنفدها لا يُنتج ما يقابلها صالح الجمعية من ناحية أخرى . وبذلك يصبح المتعطل عبئاً على الحاضرة التي يسكنها ، وعبئاً على العناصر المنتجة معاً . وهنا يتضاعف تطفله ، إذ يصبح متطفلاً باعتبارين ، الأول أنه يزاحم أهل المدن ويشاركهم أرزاقهم من غير انتاج من ناحية ، والثاني أنه يرهق العناصر العاملة في الريف بأن يستهلك ولا ينتج ، وبالأحرى بأن يأخذ ولا يعطي .

ومن تلك الحالات ما يسميه الاجتماعيون « التخم الاجتماعي » — Plethora ، ولا اريد هنا أن أطيل في تعريف « التخم الاجتماعي » ولا أن أناقش في مختلف التعاريف

التي وضعها المؤلفون الذين أتيح لي الاطلاع على مؤلفاتهم ، وإنما أقتصر على ذكر حالات يستطيع القارىء أن يدرك منها ، مطبقة على حالات تقوم بين ظهرانينا ، ما يقصد بالجشع الاجتماعي .

وعندي أن أخبث ما يؤدي اليه الجشع الاجتماعي من تكييف عقلية طبقات خاصة في مجتمع ما بمقتضياته ، إنما ينحصر في أن تتطفل جماعات ، لا أفراد ، على جسم الكائن الاجتماعي وقد تلبس الجماعات التي تنتابها سورة الجشع الاجتماعي صوراً مختلفة ، من اتحادات تجارية الى اتحادات صناعية ، الى جمعيات علمية أو اقتصادية أو سياسية تتخذ التأثير على عقلية الجماهير بمختلف الوسائل ، طريقاً تسلكه الى غرضها الذي ترمي اليه ، والذي يجعلها جديرة بأن تنعت بأنها جماعات مصابة بجنون الجشع الاجتماعي . أما ذلك الغرض فينحصر في أن تنال من الجمعية أقصى ما يمكن أن تصل اليه من الربح المالي أو النفوذ أو السلطة أو الجاه أو الحكم ، بأقل جهد ممكن أن يبذل ، أو تضحية يضحى بها من ناحيتها .

وفي مثل هذه الحالات تتضاعف خبائث التطفل الاجتماعي ، بأن يصبح تطفلاً مركباً ، لا تطفلاً بسيطاً . ونعني بالتطفل « المركب » أن هذه الجماعات المصابة بجنون الجشع الاجتماعي ، يكون فيها عنصر خاص يعيش متطفلاً على جسم الجماعة نفسها . ذلك العنصر هو عنصر انتهازي لن تسلم منه جماعة أصيبت بذلك المرض الخبيث . فكما أن الجماعة تتطفل على جسم المجتمع ، يتطفل ذلك العنصر الذي هو « واجب الوجود » فيها بما يقتضي تكوينها النفسي ، على بقية عناصرها .

وتسير قافلة المتطفلين ، ولكن الى البوار الصرف . مثلها كمثل حبيبات زرعت على مادة هلامية في زجاجة اختبار في معمل من المعامل ، فإنها تتكاثر ثم تتكاثر ، حتى إذا ملىء فراغ الزجاجة واستحالت المادة الهلامية أجساماً حية ، انتكس الأمر ، وبدأت الأحياء تنحدر إلى الهلاك المحتوم .

هذه الحالات موجودة في حالات نشاهدها قائمة من حولنا . فهل يمكن أن نتخذ التعليم أداة إصلاح نتقي بها بعض ما يكتنفنا من شرور وخبائث ؟ وهل يمكن التعليم أن يؤدي إلى الأجيال المقبلة وسائل إصلاح عملي يرفع عن كواهلهم بعض ما تنوء به من متاعب ؟ أظن

أننا نستطيع أن نجيب بالايجاب ، وأن نقول موقنين « نعم » ، لو أن فينا رجالا ، وفينا رجولة .

أرى واجباً عليّ قبل المضي فيما سوف أسوق الكلام فيه ، أن أبدأ باستدراك لابدّ منه . فقد يعيب عليّ بعض من المفكرين أني أنكر فيما كتبت ناحية ذات شأن من نواحي الحياة في مصر لم أعرها التفاتاً وقد يعتقد هؤلاء أن لتلك الناحية خطرها في صبغ الحالة الاجتماعية في مصر بصبغة خاصة . وقد يشيرون إلى الأزهر . ولو أنهم أشاروا إلى غير الأزهر إذن لكان لما يعيبون به عليّ من الوزن ، قدر غير يسير . أما وانهم قد يعنون الأزهر ، ويقولون بأنه معسكر ثالث من معسكرات العوامل المؤثرة في الحالة الاجتماعية في مصر ، ينبغي لنا أن نحسب حسابه ، وأن نتناوله بالتحليل والنقد ، وأن نزن أثره في تكييف الحالات الاجتماعية ، فأكبر ظني اني ان أسلم برأيهم مهما ساقوا في سبيل اثباته من بيّنات . ذلك بأن بيّنة واحدة تكفي لهدم جميع ما يقيمون من دلائل . فان القوى التي تؤثر في حالة اجتماعية بعينها ، إنما هي القوى الموجبة لا القوى السالبة ، والأزهر ، ولا شبهة ، قوة سالبة ، قوة اتجهت بكل ما فيها من عوامل الحياة الى الأخرويات لا الى الدنيويات .

وأنت ترى في كل الاطوار التي تقلبت فيها الامم منذ بداءة العصر الانتاجي الحديث ، أن القوى السالبة فيها انحصرت في فئتين : الأولى رجال الدين ، والثانية رجال الحكومة ، وبما فيهما من صفات السلب والمحافظة ، كانتا في كل الحالات درئة طالما تحتمي خلفها المجتمع من كثير من الهزات العنيفة والانقلابات الخطيرة التي يجنح اليها الغلاة من المصلحين أو الساسيين ، وان لهذا الموضوع ظرفاً آخر غير هذا الظرف قد يتاح لنا فيه أن نبحثه بحثاً أوفى .

فرغنا من الكلام في التعفن الاجتماعي وأحطنا ببعض ظواهره ، وأثبتنا أن هذه الظاهرة تنحدر في نظام مجتمعنا كل ينحدر السوس الحب . والآن ننتقل الى ظاهرة اجتماعية أخرى ، لا تقل عن ظاهرة التعفن الاجتماعي فعلا وأثراً . تلك ما أسميه ظاهرة « الرجعية » ولا أعني بها رجعية فكرية أو سياسية أو غير ذلك ، فلو انها كانت من هذا النتاج لهان الخطب . ولكنا أمام شيء كبير الخطر ذات ، و أعتقد أن بعض ظواهر الرجعية ، كالرجعية

الفكرية أو السياسية ، وما يجري مجراها ، تحمل في تضاعيفها أسباباً تولد قوى انتقائية وإنما أعني بها الرجعية الاجتماعية ، وأكبر ظواهرها عزوفنا عن التفقه بنفقه ثقافتنا التقليدية .

ولا مرية في أننا نحتاج الى تعريف هذه النظرية الجديدة التي ندونها اليوم ، لتكون أساساً في علاج حالات اجتماعية بعينها . بل نقول إن بعدنا عن درس هذه النظرية ، سبباً كان من الأسباب الرئيسة التي هيأت المقتضيات الأولية للشعور بأننا قد أقدمنا على أزمات اجتماعية ربما أصبحت في المستقبل بالغة منتهى الخطورة .

أما ما نعني « بالثقافة التقليدية » فمجموعة الحالات والملابسات التي ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من المكوف على فن خاص من فنون الحياة . وبمعنى أوسع تدلّ الثقافة التقليدية على العناصر التي ورثها شعب من الشعوب على مدى الأزمان ، من طريق التأثر الطبيعي بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت في عقليته بالتقاح السلالي من عادات وأساطير وعلوم وآداب ، نشأت بنشأته في مرباه الأصيل ، وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب ، إنما هي في الواقع جماع ما ورث من صفات حيوية ومعتقدات وفنون من أسلافه الأولين .

وما كان لشعب من الشعوب أن يحاول الافلات من أقطار ثقافته التقليدية الا ويله بالفشل المحقق فيما يحاول . ذلك بأن الثقافة التقليدية ، هي الأصل الذي يرتكز عليه الطبع الماثل في أخلاق الأمم ، وطرق سلوكها في الحياة . وما قولك في ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع ، ويشب مكتنفاً بها إذا يفع ، ويتقن بفنونها اذا تفتى ، ويلزم بها إذا اكتهل ، ويموت وهي مرتسمة في تصوراته جميعاً إذا هرم . لا مرية في أنها تصبح جزءاً من طبعه ، وركناً من أركان نفسه ، بل إن شئت فقل إنها الركن الأصيل في حياته النفسية والعقلية ، وما عداها توابع لها ولواحق بها . وانما تتأثر التوابع بالأصل ، وتتكيف اللواحق بالأرومة . فما من ثقافة حديثة تضاف الى ثقافة تقليدية الا وتكيف الدخيل تكيفاً يتابع فيه ما يحتاج اليه الأصيل من ملابسات . مثل ذلك أن الطبع المصري ، وإن شئت فقل « المدرية » ، ان تنسج منها الاوربية شيئاً إن هي احتكت

بها ، وأنما تكيف « الاوربية » بعوامل المصرية ، إن هما تنافسنا في ميدان واحد . وليس في ذلك أي خطر على كياننا التقليدي . ولكن الخطر كل الخطر أن نضعف من مصريتنا بالبعد عن ثقافتنا التقليدية ، فتكمن في تضاعيف النفس ولا تظهر الا ضعيفة منهوكة ، ونقوي من « الأوربية » فنأخذها غير مكيفة بمقتضيات ثقافتنا التقليدية . ناهيك بأننا لسنا أوربيين بالدم والتقاليد ، فلا نستطيع أن نفهم من روح الاوربية على ما يفهمها الاوربي الا ظواهرها الكاذبة، فنصبح وقد قمنا مصريتنا من ناحية ، ولقحنا عقولنا بالأوربية من جهة أخرى . وما كل هذا الا طلاء خادع ، ومن ورائه تختفي الحقيقة التي يجب علينا جميعاً أن نفطن اليها ، وأن ندرسها أوفر الدرس ، وأن نكب على تفهم روحها أقوم تفهم ، حتى نستطيع أن نهيئ للأجيال الآتية سبيل التكيف بروح العصر ، تكيفاً مطابقاً لثقافتنا التقليدية ، فنخطو بثبات نحو حالات اجتماعية أثبت من حالتنا الحاضرة . وفيما تقدم من شرح ، مجمل ما نعني « بالرجعية الاجتماعية » : فهي قمع لمقتضيات التكيف بثقافتنا التقليدية من طريق الفصل بين هذه الثقافة الموروثة ، وفنون الحياة في العصر الحديث

تتصل ثقافة الشعوب التقليدية اتصالاً وثيقاً بحالاتها المعيشية أولا . فاذا استكملت هذه الثقافة الأسس المعيشية التي تعين الشعوب على البقاء ، أثرت هذه الثقافة تأثيراً آخر في مزاج الشعب ، نهايته أن تتكيف فيه أشياء ثلاثة هي في الواقع ظواهر هذه الثقافة . الدين واللغة والفن ، وفي هذه الأشياء جماع ما يتجلى لناظريك في الأمم من الخصائص الأخرى ، كالخلق والحالات النفسية إلى غير ذلك .

ولا بدَّ لنا من أن نضرب بعض الأمثال لنفصح بعض الشيء عن حقيقة هذه النظرية . فالبداوة مثلاً ، ثقافة تقليدية لكل القبائل التي تعيش متبدية ، وجميع ما يتصل بالبداوة من الأسس التي تقوم عليها ناحية من نواحي الحياة في أهل البدو . والبداوة لأهل البادية بداية الحياة ، لأن فيها تتجلى روح القبيلة التي بها تحتفظ الجمعية ببقائها ، وتصون كيانها ، ومن مجموع التصورات والادراكات التي تتمثل لأهل البادية ، تنشأ الفكرة الدينية ، ثم تنشأ اللغة ، ثم ينشأ الفن ، ومن بعد ذلك تتحور الأخلاق ، فتأخذ طابعاً خاصاً ، ومن ثمت يتكون قانون العرف البداني ، وهلمّ جرّا ، فهل من المستطاع مثلاً أن تنفث جمعية

طبيعتها البداوة عن كل ما ورثته على مدى الأجيال ؛ وتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن أسلافها الأقدمين ، فتلبس من الأخلاق ثوباً جديداً ، وتتبدل من التصورات والأفكار والأخيلة والعقائد واللغة والفن وغيرها ، بما لا علاقة له بثقافتها التقليدية ، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل، من غير أن يهز ذلك التغير الطارئ ، أعماق وجودها هزاً عنيفاً شديداً ؟

كذلك الحال في أمة أخرى ثقافتها التقليدية صناعية كانجلترا أو فرنسا مثلاً . فان انفكاك أمة منهما عن الصناعة ، معناه تحطيم لروحها الموروث ، بل واستكمل ما تقوم عليه حياتها ، أدبية أو مادية ، من القواعد الأصلية في تعميتها وغرائزها . وأظن أن المصريين لا يخرجون عن مقتضى هذه القاعدة . فان لمصر ثقافتها التقليدية ؛ وهي الثقافة الزراعية التي ورثناها بحكم وجودنا على ضفاف النيل . وواجبنا كأمة رشيدة أن نقيم كياننا أصلاً على أساس هذه الثقافة الموروثة ، نكملها بمقتضيات ما يتطلب هذا العصر من ضروب الثقافات الأخرى . أما عكس هذه الآية ، وذلك ما نتجه الآن مع الأسف ، فنهايتها للخراب العاجل والدمار الشامل .

إن ما يزرع من أرض في هذا الوادي الخصيب في هذا الزمن ، جزء قليل مما يمكن استغلاله ، ولكنه على قلته لا يستغل الاستغلال الوافي ، ولهذا أسباب يطول بنا شرحها ، وإنما نذكر ذلك لنقول بأن كل متعطلي هذا الزمان . إنما هم متعطلون بحكم الثقافة التي تلقوها ، وبحكم الظروف التعليمية التي نشأوا معوّدين بها ، وأن بلاداً كمصر تستطيع أن تعضد من السكان ضعف ما تعضد الآن ، من العجيب أن تقوم فيها مشكلة تعرف بمشكلة التعطل وأن تؤلف في سبيلها اللجان وتعصر الأفكار ، وتسهر الأعين الليالي الطوال ، ونصف الأرض المزروع فيها يكاد يكون بوراً . والنصف المزروع لا يغل أكثر من نصف ما يجب أن يغل ، إذا أحسن القيام عليه بالطرق العلمية الحديثة ، وأكبر ظني أن السبب المباشر في قيام هذه الحال ، إنما يرجع الى أننا نسينا أن لنا ثقافة تقليدية ، يجب أن تكون أساس الحياة في هذا الوادي . وأنه يجب أن تقوم سياسة التعليم أول شيء ، على فكرة الاتصال بثقافتنا التقليدية .

لقد مضينا حتى الآن نقيم قواعد التعليم على النظريات ، لا على طبيعة بلادنا . لهذا نرى أن كل النتائج قد اتجهت اتجاهاً سيئاً ، لا اتجاهاً إيجابياً . وعكس ذلك ما نطلب أن يكون .

حدثت في مصر مشكلة عرفت بمشكلة المتعطلين من المتعلمين ، وما من سبب لهذه المشكلة في الواقع إلا السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا ، بالفصل بين ثقافة أولادنا التي يتلقونها بين جدران المدارس ، وثقافة آبائنا الأقدمين . وحدث في مصر أن انشقت معسكرين لا اتصال لأحدهما بالآخر ، معسكر المتعلمين المتعطلين الذين لا اتصال لهم بثقافة بلادهم التقليدية ، ومعسكر الفلاحين الذين اتصلوا كل الاتصال بثقافة بلادهم الأصلية من غير أن يلقحوا بشيء من مقتضيات الحياة في العصر الحديث ، وبدأت في مصر روح التبرم بالحياة المصرية ، تلقى منها كل يوم ألواناً مما ينتج على يد المتعلمين الذين إن لم تعوزهم الهمة إلى العمل ، فقد يعوزهم المجال الذي يعملون فيه ، بقدر ما هيأهم التعليم النظري الذي عكفوا عليه ، ولسوف تتقدم خطوة بعد أخرى متمادين في العمل على زيادة معسكر المتعطلين ، ما دمنا نعكف على تعليم أولادنا على أساس النظريات لا على أساس العمليات ، وما دمنا نخرج رجالاً لا يعرفون عن طبيعة بلادهم شيئاً . ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن ابن الفلاح الذي يتخرج في كلية من الكليات العليا ، ليس بأكثر علماً بطبيعة بلاده من زميله ابن المدينة الذي يتخرج وإياه في معهد واحد . فإذا لم يجدا لهما مرتزقاً أصبحا صنو بطالة ، ولم يمتز ابن الفلاح على ابن المتحضر بشيء مما امتاز به جدودهما من أهل الريف ، من قدرة على الانتاج ، والعيش بما تغل سواعدهم من ثمرات الأرض .

ويخيل إليّ ، وربما كنت على كثير من الحق فيما أتخيل ، أن الخطأ الذي نلاحظه في سياسة التعليم في بلادنا ، غير قاصر على قمع ثقافتنا التقليدية أن يكون لها أثر في تكويننا العقلي والخلقي ، بل إننا أضفنا إلى هذه خطيئة أخرى ، هي أننا عملنا دائماً على تضخيم المعلومات التي يتلقاها الطلبة في مدارسنا الثانوية والكليات . فقد يخرج المتعلم الى ميدان الحياة العملية بعد حياة أمضاها في جو من النظريات الصرفة ، وهو يعتقد انه قد ملىء علماً بالحياة ، ثم لا يلبث أن ينكشف له الحق ، وإذا به يرى أن كل ما يعرفه من نظريات العلم

والأدب والفن، لا يكفيه رزق يومه، ولا يغنيه عن الإكباب على ناحية أخرى من نواحي الحياة العملية يدرسها لتكون له في الحياة عوناً على تحصيل الرزق. ولا شك أن ذلك يحدث ارتجاجاً عظيماً في حياة شاب ملأه الأمل في الحياة، والزهو بما تجمع في رأسه من المعلومات. وما من ريبة في أن هذه الصدمة المعنوية، لها أثرها البالغ في سلوك الشاب وتفكيره، ربما لازمه طوال حياته.

يكتف الشاب المصري بين جدران معهده على ناحية نظرية من العلوم بعيدة عن تجارب الحياة، ويتلقى أنواع المعارف المختلفة، ويمضي مكباً عليها عمراً، حتى يكون له نظرة خاصة ويتجه بفكره وقلبه اتجاهاً معيناً، وينشئ في عقليته قيماً للأشياء، وفناً ينظر من طريقه في الحقائق. وعلى الجملة يتخيل أنه يتكون من طريق معارفه تكويناً يؤهله لأن يكون وحدة مستقلة في جسم اجتماعي. فإذا استبان له الواقع، وواجه الحياة بما استجمع من معارف، فعلم أن للحياة طريقاً آخر غير الطريق الذي صرف فيه عمره، وأن لها قيماً أخرى غير القيم التي يؤمن بها، وأن لها فناً غير فنه الذي ينظر من طريقه في حقائق الوجود، انقلب على الماضي ثائراً، ومن المستقبل يائساً، وخيل إليه أن المجتمع جنى عليه، فسلبه سلاح العمل، وجرده من عدة الهجوم والدفاع في ميدان المنافسة الاجتماعية. وما بالك بهذا الشاب نفسه، إذا هو أراد أن يرتد إلى مصريته فيصبح فلاحاً كأبيه أو جده، وأن يتصل مرة أخرى بثقافة بلاده التقليدية، فيتضح له أن علمه بطبيعة بلاده ضئيل، وأن علاقته بطريقة الحياة فيها لا تواتيه بالعدة الكافية للحياة في وسط مصري أصيل، الفلاح سداه، والفلاحة لحمته؟

من الأخطاء التي لا ينبغي لنا أن نغفل عن وزنها وزناً صحيحاً، أن تعليمنا الأدبي في الكليات ينقل إلى الأذهان صوراً من الأخلاق، وفنوناً من السلوك، ومذاهب من الفلسفة النفسية، تختلط في عقليتنا اختلاطاً عظيماً، حتى تتكون منها مقاييس جديدة بعيدة جد البعد عن المقاييس الخلقية والسلوكية التي يؤمن بها الفلاح الساذج. فإن عصور الظلم والاستبداد التي عانى فلاح مصر في خلالها الأمرين، وتوالي الدول في الحكم على ضفاف النيل، قد طبعت الخلق المصري بطابع خاص، وصبغته بصبغة خاصة، ويجب أن يعنى بدرسها أولى الدرس المصري المتعلم، وأن يكب على تفهمها كل الاكباب، قبل أن يظن أنه قادر على

أن يعايش ذلك الفلاح الخشن الجاهل ، وأن يعلم في أول ما يجب عليه أن يعلمه ، أن جهل الفلاح من جهة العلم بالنظريات ، قد عوضته عنه الطبيعة ذكاءً حاداً وقدرة على التحايل وفطنة في ادراك الحقائق ، وأيقظت فيه قوى العقل الباطن إيقاظاً شديداً ، حتى يكاد يكون عند بعضهم إلهاماً في توقع الأشياء وحدوثها . أضف الى ذلك أن طبيعة البلاد قد ثقفته بثقافة ورثها على مدى العصور ، ثقافة أحيت فيه روح اليقظة ، يتلقى بها الأحداث مكتمل الهمة ، ثابت القلب ، قوي الجنان ، عظيم الثقة بنفسه . فان بلاداً تتوالى فيها دورات الزراعة كبلادنا ، ويفيض فيها النيل في مواعيد محدودة ، قد غرست في نفسه بالتجربة أن الحياة فرص يجب انتهازها ، وعلمته أن اهمال ساعة أو يوم قد يفوّت عليه رزق عام . هذا الفلاح الذي اكتملت ثقافته العملية من هذه النواحي وأمثالها ، وهي كثيرة متعدّدة ، هو بذاته موضوع درس عميق لا يستغني عن معرفته مصري يريد أن يعيش فوق أرض مصر ، وعلى ضفاف نيلها مرتزقاً بغلاّتها مغتنّاً في إحياء خيراتها . ولاشك في أن هذه الناحية الضخمة من نواحي ثقافتنا التقليدية ، مهملة في معاهدنا كل الاهمال ، فالمصريون مع الأسف أجهل الناس بتاريخ بلادهم ، ذلك في حين أن تاريخ كل شعب جزء لا يتجزأ من ثقافته التقليدية . وأعني بتاريخ بلادهم تاريخها الاجتماعي والنفسي ، لا تاريخ الشهور والأعوام والقرون والغزو والموت والحياة ، تلك الأحداث التي هي عندي في طبيعة الأمم والجماعات أشبه بالأحلام .

فالشاب المتعلم الذي يدرس مذاهب اليونان الفلسفية وتاريخ رومية والأغارقة ، ومذاهب الأدب ومقدمة التوانين ، إلى غير ذلك مما يتلقى الشباب بين جدران معاهدنا ، من غير أن يتصل بثقافة بلاده التقليدية ، شابٌ مصري بالاسم ، لا بالروح ولا بالتقاليد . هو يجهل طبيعة بلاده وخلق أهله ، وتاريخ العصور التي توالت على وطنه أحداثها ، وشكل الحكومات التي تناوبت الحكم فيه ، والميراث الذي ورثه عن أجداده الأقدمين . ولا ريبة في أن شاباً هذا شأنه ، إنما يخرج من معاهد العلم متعلماً جاهلاً ، وإن شئت فقل يخرج متعلماً مشحون الذهن بكثير من المعلومات التي من شأنها أن تفصله عن طبيعة بلاده وتصيّره في محيطه غريباً ، كأنه علقة جديدة في نسمة شيء قديم . ومن هنا يكون عجزه عن الكفاح في الحياة ،

وعن الاتصال بالأرض التي أنشأته وأنشأت السلالة التي انحدر منها منذ أقدم عصور التاريخ.

والحصيلة أننا مشرفون على أزمات اجتماعية أساسها الظاهر الآن كثرة المتعطلين من المتعلمين الذين فصل التعليم بينهم وبين ثقافة بلادهم التقليدية، فأصبحوا فيها غرباء، وسنعالج في الصفحات التالية بعض ما صوّرنا حتى الآن من نقائص حياتنا الاجتماعية من حيث علاقتها بالتعليم.

***

ظاهر إذن مما سبق القول فيه، ان لكل أمة من الأمم ثقافة تقليدية ترثها عن أسلافها، وان هذه الثقافة تصبح بالوراثة قطعة من غريزتها وجزءاً من فطرتها، لا تنفك عنه أمة من الأمم أو تكون قد انفكت عن أخص مميزاتها، وأعظم مظاهرها الاجتماعية. وعقبت على ذلك كله، بمجمل العلاقات التي تربط كل أمة بثقافتها التقليدية إظهاراً لوجهة نظري في هذه المسألة الحيوية.

على أن ما أحصلت به فيما سبق قد قصر على بيان العلاقة التي تربط الثقافة التقليدية في كل أمة بمظاهرها الاجتماعية، من حيث أنها مظاهر اقتصادية لا غير، والآن أريد قبل أن أختم هذه البحوث، أن أظهر أن لنظريتي في الثقافة التقليدية أثراً في تكوين العقلية الفردية، وتكييف العقلية الجماعية منشأةً في كل أمة من الأمم، بمقتضى الظروف والحالات التي لابستها منذ أقدم عصورها التاريخية.

ومن أجل أن نبين عن حقيقة ما نقصد اليه، نقصر الكلام على أخص الظواهر التي ثارت من حولها دعجاجة النقد وكثر فيها الجدل، حتى أصبحت من عقلية الجمهور المتعلم، جزءاً لا يتجزأ.

ولا ريبة أنّ في حياتنا الحاضرة مظاهر، هي بحكم العصر الذي نعيش فيه والحالات التي تكتنفنا، أحق من غيرها وأبين في تكييف عقلياتنا من كل الظواهر الأخرى، وأقصد بذلك الأدب من ناحية، والوطنية من ناحية أخرى.

وأول ما يبدو إلى ذهن الباحث في هذا المقام أن يسأل: أمن علاقة بين الثقافة التقليدية والأدب، أهناك صلة بين هذه الثقافة والوطنية؟ أيكون لماضي الأمم أثر في تكوين أدبها

وصبغ وطنيتها بصبغة خاصة ، وهل من رابطة تربط بين تصورات ومشاعر وعواطف درجت عليها القرون ، وبين أبناء جيل يخيل اليهم أنهم نفضوا أيديهم من الماضي وأزالوا عن كواهلهم تراب الأزمان الغابرة ، فأصبحوا خلقاً جديداً ، وأمة مستحدثة من عناصر لا تمت إلى القديم بسبب من الأسباب ؟

ماكان لباحث أن يسأل هذا السؤال وما كان لهذا السؤال أن يدور في مخيلة مفكر لو أن لنا بثقافتنا التقليدية صلة أو كان لهذه الثقافة علاقة بأدبنا أو حياة وطنيتنا . وإنما يدور هذا السؤال في مخيلة كل مفكر بحكم أننا قطعنا صلتنا بالماضي وفرطنا عقد رابطتنا بعصر القديمة ، وبالأحرى حللنا العقدة التي تصل بين حبل حياتنا الحاضرة والخيوط التي تتكون منها شبكة حياتنا الماضية . ولا شك في أن الفرد ثمرة الماضي . قبل أن يكون ابن الحاضر ، وصلته بذلك الماضي صلة وراثة . أما صلته بالحاضر فصلة ضرورة

ولا مرية في أن هذا السؤال غير طبيعي في أمة أحكمت صلتها بماضيها ، ووثقت روابطها بثقافة آبائها الأولين . فهو بمثابة أن تسأل مثلاً : أمن علاقة بين دمي الذي يجري في عروقي ، ودم جدي أو جد جدي ؟ وهل من صلة بين تصوراتي ومشاعري وميولي ، وبين طبيعة الأرض التي تغذيني ، والهواء الذي يحييني والسماء التي تظللني ؟ ذلك بأن الأمم متى أحكمت صلتها بماضيها ، وتنشقت دائماً عبير الروح الذي سرى في كيانها منذ أبعد العصور ، لن تشعر يوماً بأنها في محيط غير محيطها الطبيعي ، أو أنها في بيئة غير بيئتها الفطرية ، فيظهر أثر ذلك كله معكوساً في جماع مظاهرها . وبخاصة في آدابها وفي وطنيتها . أما ونحن نشعر الآن بأن أدبنا أدب مصنوع ، لا أدب فطري ، وأن وطنيتنا وطنية ظاهرية لا وطنية حقيقية ، فإنه من الطبيعي أن نسائل أنفسنا عن سبب ذلك ، ومن الطبيعي أن نجد الجواب في النظرية التي أدلينا بها من قبل في العلاقة التي تقوم بين المظاهر الاجتماعية والثقافة التقليدية التي تختص بها كل أمة من الأمم ، وتختص مصر بصورة منها .

قرأت منذ سنوات قصيدة عنوانها « قبرة شيلي » . وعكفت كعادتي في كل ما أقرأ في المترجمات على مقابلتها بالأصل ، فألفيت أن الشاعر المترجم قد أجاد في المحافظة على المعاني الأصلية قدر ما تجيء أوزان الشعر وقوافيه ومفردات اللغة العربية لمترجم أن ينقل شعراً من

الانجليزية الى العربية ، وقد أحسن الشاعر المترجم سبك المعاني في قالب عربي يلائم روح التجديد ، مع المحافظة على جرس الأسلوب العربي ، فأكبرت القصيدة وأعدت تلاوتها مرات مبالغة في الوقوف على ما فيها من أوجه النقد ، ووزنها على مقتضى المعايير التي أومن بها في تقييم الشعر ، ولم ألبث أن أحللتها بين ما اعتقد أنه من جيد الشعر الحديث ، غير أني بعد كل هذا كنت أشعر بأن في القصيدة ماهية أخرى تبعدها عن طبعي ، وتقصيها عن تصوراتي وتجاربي ، وتلقي في روعي أني غريب عن الجو الذي تخلقه من حولي . فلا الجوّ الذي وصفه « شيلي » وغشاه بالسحاب القاتم الشديد السواد هو الجوّ الذي أعرفه ، ولا الغناء القوي الحنون الذي ترسله قبرته هو نفس الغناء الذي أعهده في قبراتنا ، ولا لونها الأصفر الزرياني الذي يجعلها تظهر تحت السحب السود كأنها شرارة من لهب ، هو لون القبرة المغبرة السفعاء التي آنسها في حقولي ، كذلك رأيت في ذكر السيول والأمطار الغامرة التي ترسلها سماء انجلترا شيئاً جديداً لا علاقة له بمحيطي ، ولا صلة له ببيئتي . وعلى الجملة شعرت بأني أقرأ خيالاً انجليزيّاً في شعر عربي . خيال يجذبني من ناحيته الى ثقافة غير ثقافتي التقليدية ، بل يقصيني عن تجاربي ومشاهداتي . وان كل ما يهيء لي القصيدة من قدرة على التصور ، هو ما تحمل ألفاظها العربية من معانٍ أتخيلها تخيلاً وأتصوّرها تصوير الحدس والوهم ، وأن آلة الأداء ، وهي اللغة العربية ، هي الناحية الوحيدة التي تقرّبني بعض التقريب من الجو الشعري الذي تكيّف به القصيدة مشاعري ، ولا شك في أن الشعر شيء ، وآلة ادائه شيء آخر ، وانما يكون الشعر متصلاً بطبع الانسان متى استمدّ عناصره من ثقافة تقليدية لا يُعنت التصور إدراكها ، ولا يتعب الخيال تصويرها ، فيشتمل على نواحي النفس ويخاطب الروح بديئة ، قبل أن يخاطب العقل .

عقبت على هذا بقراءة قصة مترجمة عن كاتب روسي مشهور ، فآنست فيها شططاً في الوصف ومغالاةً في التقدير ، وتحليلات نفسية معقدة غاية التعقيد ، بعيدةً كل البعد عن بساطة الروح المصري الذي آنسه في الفلاح الساذج الذي نشأت محروساً بثقافته التقليدية . ولا أريد أن أبحث شخصيات هذه الرواية لأحكم إن كان في الدنيا شخصيات حقيقية تقابل

الشخصيات التي وصفها الكاتب وحلل نفسياتها [1] ، وإنما أريد أن أقول إن تحليل ذلك الكاتب ، مهما كان فيه من حق وبعد عن المغالاة ، وسواء أكانت الصفات التي أضفاها على شخصياته تلك صفات يمكن لنفس بشرية أن تنطوي عليها ، أم أنها شخصيات خيالية لاتقوم لها حقائق في الخارج ، فجل ما أرمي اليه أن أقول إنها شخصيات لا تربطني بها رابطة ، ولا تصلني بها صلة ، وأن محيطي الذي أعيش فيه ينكر وجودها وينفي حقيقتها ؛ وبالرغم من أن شخصاً آخر في محيط آخر ، قد يرى أنها شخصيات طبيعية ، بل قد يجسمها خياله على مقتضى تجاربه التي يشهدها في حياته .

ولا أقصد بذلك أن مثل هـذا الأدب غير مفيد في توسيع مجال الخيال ، ومدّ آفاقه وتنويع الصور المتخيّلة ، وتوطيد قواعد الأدب المصري من حيث صلته بالآداب الأخرى . وإنما أقول انه مهما كان فيه من المميزات ، فهو أدب دخيل لا أدب أصيل . أدب لاعلاقة له بثقافتنا التقليدية ، فهو من طبع غير طبعنا ، وفطرة خلاف فطرتنا ، إنما هو أدب تصوري ، لا أدب حقيقي ، تقيسه معاييره بمقياس حياتنا الخاصة ، ومحيطنا الخاص . أدب لا تهضم منه فطرتنا إلاّ القليل النادر . هذا على اعتبار أن العلم بالأدب شيء ، وهضمه وتمثيله في الروح شيء آخر . ولن يكون للادب من أثر في الحياة إلاّ بأن تمثله الروح ، فيصبح جزءاً منها ، فتسترشد بمثله وتتعظ بعظاته ، وتدرك منه الحقائق إدراك استيعاب ، لا إدراك علم بها ، دون الإيمان بما فيها من حقّ ووقائع .

وما أريد أن أستطرد في ضرب الأمثال ، فان فيما أوردت منها غنىً عن ذكر غيرها . ذلك بأن كثيراً مما نقرأ في الصحف والمجلات ، وكثيراً من المؤلفات يجري هـذا المجرى ، ويسيل هذا السيل ، حتى لقد أصبح أدبنا الحديث ، لكثرة ما فيه من الرقع والرتوق ، ولكثرة ما فيه من صور الأمم الأوربية ، كأنه « عصبة أمم » ولكن في صحف ، سطرت بكلمات عربية .

في وسط هذه الصور العجيبة المتنافرة ، وفي غمرة تلك الفوضى السائدة في الأدب على مختلف ألوانه وعلى متفاوت وجوهه ومتباين ضروبه . أتقع على الأدب المصري الصحيح

[1] رواية العلامة الروسي دوستويفسكي : الاخوة كرامازوف

مقدمة

اتجاه مبارك ذاك الذي حمل جملة من متفقهي هذه البلاد ورجالات التعليم فيها على عقد مؤتمر التعليم الذي نشرت قراراته في صحفنا منذ حين .

ومهما يكن من أمر تلك القرارات ، ومهما يكن من أمر البحوث التي ألقاها في المؤتمر ثلة من أهل الرأي ، فانها جميعاً تنطوي على اتجاهات تنظيمية ، لا تتعدّى تنظيم مدارج التعليم والنظر في بعض خصيّاته ، مع الاحتفاظ بالروح القديم الذي جرى عليه التعليم حتى الآن ، أو على الأقل بأكثر ما في هذه الروح من ماهيات . بل إن الأمر قد تعدّى هذه الاتجاهات الى الكلام في مسائل تجريدية منها تنشئة حس الجمال . وليس لنا أن نتكلم في مثل هذا . فليس المجال مجال نقد لما تصدّى له المؤتمر ، وانما المجال مجال القول في الغرض الذي ينشده التعليم ، والمرمى الذي ترمي اليه التربية .

لا ريب مطلقاً في ان لكل عمل انساني غرض أصيل يرمي اليه . فما هو الغرض الذي نرمي اليه من التعليم ؟ وما هي السبل التي ينبغي أن نسوق فيها الشباب ؟

ذلك ما لم يعرض له المؤتمر بطريقة واضحة . وعندي ان الغرض الأسمى من التربية هو تنشئة رجال مستقلين . رجال الاستقلال أخص مميزاتهم . رجال مستقلون في الرأي والخلق وفي كسب الرزق الحلال ، بحيث تضعف فيهم صفة التطفل الاجتماعي والتواكل ، بقدر ما تقوى فيهم صفة الانتاج والأصالة .

أريد أن أقول ان التعليم الصحيح الذي يسد هذا الغرض ، هو أن نصل بين التعليم والحالات الاجتماعية التي تكتنفنا في هذه البقعة التي نشغلها من كرة الأرض . كما أريد أن أقول إنه أساس التعليم السليم الذي يمكن أن يخرج هذه الطبقة من الرجال ، هو التعليم الذي يتصل بثقافتنا التقليدية .

هذه النظرية الجديدة المقتطعة من صميم بيئتنا ، هي موضوع هذا البحث الذي ننشره معتقدين أن في الأخذ بنظريته ، فكّ الأغلال ، والاتجاه نحو آفاق الحرية الاجتماعية السليمة من أمراض التطفل والجشع الاجتماعي .

الطبع الليّن الجانب ، عا فيه من قوة المقاومة السلبيّة ، الفرس والروم والرومان والعرب ، والمماليك والأتراك ، ولا يزال مستعداً لابتلاع خمين قيصرية من أمثال هذه القيصريات العظام ، وهو قابع في عقر حقله الصغير ، وفي كسر بيته الطيني : تاركاً دورات الحظ تدور بالسعد حيناً وبالنحس حيناً آخر ، وما يهمه في الحياة من شيء . إلا أن يضحك ساخراً من الأمم والأقدار .

على أن الاطناب في مثل هذه الأشياء تحصيلُ حاصل . والاستطراد في ذكر الشواهد عبث . لأننا نشعر شعوراً كاملاً بأن الأدب المصري اسم على غير مسمى . وإن شئت فقل إنه فرض لا حقيقة له . وأنا أقصد بالأدب المصري . الأدب المقتطع من حياتنا ومن أنفسنا ومن أخيلتنا . الأدب الذي إذا قرأته تبينت فيه مصر وأرض مصر وسماء مصر وتاريخ مصر وعلى الجملة كل ما توحي به مصر من الموحيات الدفينة في نفوسنا الراسية في طبعنا الحائرة في أرواحنا .

أما السبب في كل هذا فهو أننا بَعُدنا عن ثقافتنا التقليدية، بل أننا قطعنا صلتنا بالماضي وهمنا في فلوات لا نعرف فيها طريقاً نسلك ، لا إلى الأمام لنصير أوربيين صرفاً . ولا إلى الوراء لنعود إلى مصريتنا مرة أخرى . وإذن فنحن في التيه . ولكنه التيه الذي سوف لا نخرج من فلاته ما دمنا غير قادرين على تقييم حقائق وجودنا تقييماً صحيحاً . وما دمنا عاجزين عن إدراك تلك الحقيقة الأولية . حقيقة أن ثقافتنا التقليدية هي الملجأ الأخير الذي يوقظ فينا « الروح المصرية » التي من طريقها تكوّن الأدب المصري الذي ينبغي أن يكون من حياتنا الأدبية بمثابة الجهاز الهضمي في الحيوان . فيه نهضم الآداب الأخرى ثم نمثل [1] أدباً جديداً ملائماً لآدابنا ومشاعرنا وأخيلتنا . وفي الوقت نفسه نطرد النفايات . تلك النفايات التي تسمم أدبنا وتهدده . لأن أدبنا الجديد أضعف من أن يفرزها إلى الخارج جسمه المتهدم العليل .

هذا من حيث الأدب . أما الوطنية المصرية ، ووصفها بأنها وطنية ظاهرية . فلا يرجع إلى حب الأغراب . ولا إلى حب النقد بغير دليل يقام . أو حجة مقبولة . لهذا نقسم الوطنية

[1] بالمعنى الاصطلاحي : أي تحويل جزء من المطروح

قسمين : قسماً يمثله الشباب المتعلم وعلى رأسه الاحزاب . وقسماً يمثله الفلاح الساذج .

على أنه ينبغي لنا قبل الاستطراد في شرح صفات القسمين ، أن نتعرّف كيف نشأت الوطنية ، ومن أي نبع تستمد تصوراتها . وما من شك في أن الوطنية المصرية إنما استمدت أول خطواتها من آداب الثورة الفرنسية الكبرى التي قلبت نظام الحياة في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر . والدليل القاطع على هذا أنه منذ عصر عرابي الى اليوم نرى أثر القسمين واضحاً جليًّا في كل ما أدت الوطنية المصرية من الخدم الجسام لمستقبل مصر الحديثة . فالقسم الاول يأتم بالنظريات التي ذاعت في فرنسا في عصر ثورتها وظلّ مؤتمّاً بها حتى الآن. والقسم الثاني ظلّ متمسكاً بتصوراته القديمة التي عكف عليها طوال العصور التي ظلت فيها مصر ميداناً لتطاحن الامم والقيصريات .

أما الفئة الاولى ، وهي الفئة التي عكفت على النظريات الاوربية تستمد منها تصورات الوطنية فكانت في كل الأدوار التاريخية منذ ستة عقود من الزمان ذات الأثر الواضح في تكييف الظروف التي لابست كياننا السياسي . فهي التي بثت الروح الجديدة وساقتها في طريق أجبر مقاوميها على أن يعدلوا من موقفهم إزاءها تدريجاً على مقتضى قوتها أو ضعفها حتى أصبحنا اليوم وفي حياتنا السياسية عنصر جديد لم تعرفه مصر منذ عشرين قرناً من الزمان . غير انه مهما قيل في هذه الوطنية فان مظاهرها قاصرة على تصورات فئة قليلة العدد مقيسة ببقية الذين يؤمنون بالوطنية مسبوكة في القالب الذي صوّره الفلاح المصري ليكون حدًّا لوطنيته . وأن كلامنا إنما ينصب على وطنية هذا الفلاح دون غيرها

قد تعجب ويشتد بك العجب إذا أنا قررت هنا الفلاح المصري شديد الوطنية مغالٍ فيها ، بل متطرف في وطنيته أشد تطرف ، ولكنك مجانب هذا تسأل أين الآثار التي تتجلى فيها هذه الوطنية . فأجيبك بأنها تظهر كل يوم على صفحات جرائدنا الاخبارية ، وتشتغل بها الحكومة في أكثر أيام السنة ! ألا تقرأ كل يوم أن فلاحاً حزّ رقبة أخيه لأنه اعتدى على حقله فهدّ جزءاً من حدوده ؟ ألا تسمع أن أسرة شهرت السلاح في وجه أخرى لأن أحد أفرادها أراد أن يأخذ نصيب آخر من الماء ، وأن الموقعة أنجلت عن قتيل وجرحى وأسرى محبوسين للتحقيق ؟ إذن فعرف أن هذه هي الآثار التي تترتب على وطنية الفلاح المصري

أما الوطنية نفسها فتنطوي على حب الحقل والدفاع عنه بالمال وبالولد وبالروح ، ذلك بأن الفلاح الذي فقد حقوقه المدنية والسياسية طوال عصور قلما تعيها الذكريات ، ونزل به من الفادحات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، لم يصبح عنده في الدنيا من شيء ذي قيمة الاّ ذلك الحقل بحدوده الاربع ، والاّ ذلك النزر من الماء المحيي الذي يجود عليه بالرزق الحلال .

أما السبب في أن تنضمر الوطنية المصرية حتى تصبح في نظر الفلاح الذي هو أهم عناصر مصر الحيوية محوية في داخل هذه الحدود الضيقة فراجع الى أسباب تاريخية . فانه منذ غزو الاسكندر المقدوني ، ومن قبله بعشر سنين ، أي منذ أن طرد الفرس آخر ملوك الفراعنة واسمه « نقطانيبو » لم يَسُد المصريون في بلادهم يوماً واحداً ، وظلّ المصريون بين الحقول يزرعونها ليعولوا أنفسهم ، ويعولوا أسيادهم الذين يتسلطون عليهم من أية أمة كانوا ، وبأي دين دانوا . فقد استطاع المصريون قبل الغزو الفارسي الأخير أن يستردوا حريتهم المرّة بعد المرّة ، عقيب كل غزو دهمتهم به أمة أجنبية كالهكسوس وغيرهم ، وأن يقيموا على عرش بلادهم أسراً من الفراعنة تحيي تقاليد الحكم والثقافة والامة ، تلك التقاليد التي نشأت ورسخت في مدى عصور متعاقبة . ولكن تلك الغزوة كانت آخر عهد ملوك الفراعنة الذين تجري في عروقهم الدماء الوطنية بالحكم على ضفاف النيل والى آخر الدهور . فمنذ فتح الاسكندر ، خضعت مصر ألف سنة لحكام ملّيي للحضارة من مقدونيين ورومان ، وفي نهايتها صارت مصر جزءاً من جسم الاسلام ، فبدّلت تبديلاً ، وأصبحت لها لغة أخرى ، ونظام اجتماعي لا عهد لها به ، ودين جديد ونبذ الآلهة الذين عبدوا في مصر على أنهم آلهتها الخواص الآلاف من السنين نبذاً أبدياً ثم دفنوا في ثراها .

ومنذ ذلك التاريخ لم يغز مصري أصيل بالحكم على شطآن النيل ، بل لقد مرّت عصور طويلة كعصر البطالمة مثلاً لم يكن في الحكومة كلها من مصري شغل مركزاً أكبر من مركز صرّاف يجبي المال . بل رأى المصريون معابدهم المقدسة تستباح فيتخذها المقدونيون موضعاً لهوهم وعبثهم ومكرهم وعربدتهم ورأوا الفرس يذبحون عجلهم المقدّس من قبل ذلك .

ولقد كان لهذه الملابسات التاريخية آثار كيّفت الوطنية المصرية فحدّدتها بحدود الحقل المقدّس . وانما صار الحقل مقدساً في عين المصري لأنه كان الملجأ الوحيد الذي لجأ اليه طهاه

من الانقراض التام . ولولا ذلك الحقل إذن لأصبحت مصر اليوم إما رومية وإما لاتينية . ولكن الحقل قام سداً بين الغزاة وبين المصريين أين منه سد يأجوج ومأجوج . ذلك بأن ترى مصر لم يكن ليزرعه إلاّ المصري ولا يقوى عليه غير المصري . لهذا عبده المصريون بعد « أبيس » وقدّسوه في الأعصر الحديثة تقديساً ليس فوقه عندهم شيء إلاّ خشية الله . ففي الحقل رزقه وقوته . وفي طرف منه قطعة صغيرة لا تزيد مساحتها عن بضعة أقدام مربعة فرشت بنبات الحلفاء هي مصلاّه . فالحقل للفلاح عالم صغير مقدّس يذود عنه بالروح ويبذل في سبيله الدم لأنه ملجؤه الأخير وملاذه ومبتغاه . وبالجملة أصبح له كما يقول « هوجو » البيضة والعش والسكن والوطن والكون .

فلا عجب اذن في أن تنحصر الوطنية المصرية ونعني بها وطنية السواد من أهل مصر في حدود ذلك الحقل ولا تتعداه . وكيف تتعداه وقد آنست فيه الحياة آلاف السنين واستقرّت في تربته الاجيال تم الأجيال .

وكما أننا عجزنا عن أن نكوّن أدباً مصريّاً صحيحاً قوي الروح والأخيلة بأن بعدنا عن ثقافتنا التقليدية فكذلك عجزنا عن أن نخرج لهذا السبب عينه وطنيتنا من حدود الحقل الى حدود مصر ، وليس هذا وحده السبب في أن وطنيتنا ظاهرية ، بل أن هنالك سبباً آخر يتجلى في أن أصحاب الفريق الأول من وطنيينا وهم الذين يستمدون تصوراتهم الوطنية منقولة من أوروبا ، لم يتغلغلوا في صميم مصر ليفهموا حقيقة السبب في ضعف الوطنية المصرية ، وإنما يجب علينا أن نعكف على ثقافة تقليدية ننتزعها من صميم مصر ، لتكون عوناً في بناء صرح المجد كاملاً اقتصاداً وأدباً ووطنية .

وأما نقلنا في هذا حتى الآن فإلى أي شيء نعزوه ؟ إلى السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا بغير جدال . وسنظهر في ما يتلو من البحث ، جهد مستطاعنا ، كيف ننحو بثقافة تقليدية مستحدثة تنقذنا من البوار المحتوم .

لقد بلغنا من البحث ذلك المبلغ الذي يهيء لنا أن نخلص إلى النتائج فقد شرحنا الأسباب التي أفضت بنا إلى تخريج متعلمين متعطلين لا عن لهم ، ولا بيئة يمكن أن يتمتع فيها بما تعلموا ، وصوّرنا بعض النتائج الاجتماعية التي تترتب على هذه الحال ، وبيّنا الفروقات

فاستنبطنا منها صورة لما سوف يكون عليه مجتمعنا في المستقبل القريب ، والنتائج السيئة التي ستظهر آثارها جلية واضحة في عجزنا عن الاحتفاظ بحالة اجتماعية ثابتة قوية الأركان ، وعطفنا من ثمت على وصف صورة من أدبنا ووطنيتنا ، وعزونا كل النقائص إلى نظرية جديدة مُجملها أن الانفصال عن ثقافتنا التقليدية كان السبب في أن تصبح ككائن حي لا معدة له يأكل ولا يهضم فتراكمت في كيانه كل النفايات التي لا تلائم طبعه ، ولا تتفق ومزاجه . وأن ذلك كان سبباً في ألا تظهر له شخصية خاصة به وأصبح كلاً على غيره بأن فقد استقلاله الذاتي .

ويجدر بنا بعد ذلك أن نُعيِّن مِمَّ تتكوَّن الثقافة التقليدية ليتيسر لنا أن نحدد البحث تحديداً منطقيًّا مقبولاً فإن لكل ثقافة تقليدية اختصت بها أُمَّة من الأمم مكونات تنتهي إلى أصول بعينها . وعندي أن الثقافة التقليدية عنصرين . الأول: عنصر عقلي . والثاني عنصر معاشي وكلاهما موروث . فالأول يتكون وراثة من اللغة والدين والتاريخ والأدب والفنون الخ . والثاني: يتكوَّن وراثة من كل ما يتعلق بالأحوال المعيشية وهي في مصر الزراعة وما يتعلق بها من المنتجات ومن أجل أن يكون استقلال الفرد استقلالاً عمليًّا في الحياة . ينبغي أن يتجه تنشيئه إلى أصل أساسي وبالأحرى إلى سياسة عملية ترمي إلى وصله بالعنصرين وصلاً وثيقاً حتى يستطيع أن يمثل جميع ما يلقح به من مقتضيات الثقافة الحديثة فيكيفها على حسب ما تتطلبه حاجات ثقافته التقليدية . وأن ينفي عن جسمه كل ما هو غير ملائم له فيظل سليماً ، شأن كل كائن حي اتصف بكل ما تعده به حيوية مكتملة من الصفات الضرورية للحياة ، وتكافأ في كيانه كل الأفعال التي ترجع إلى قدرة أعضائه على تنظيم وظائفها المتبادلة تنظيماً دقيقاً يساعد الطبيعة على أن تفسح له في الحياة مركزاً جديراً بما يتصف به من صفات وبما له من مقدرة على الاستقلال بذاته .

تتصل مصر بثقافتين من أعمد الثقافات التي خلفها النوع الانساني : ثقافة العرب : ديناً ولغة . وثقافة المصريين : فنًّا وحياة . ولا شك في أن الثقافتين تمتزجان الآن في المصريين امتزاجاً عظيماً حتى ليتعين علينا أن نقول إن ما نعني بالثقافة التقليدية ينحصر فيما ينتج مزيج الثقافتين القديمتين من حالات تشعر بأن ما فينا مكوَّن منها ، وأن دمنا ماتح بها ، وأن تصوراتنا

ومشاعرنا وجماع ما فينا من صفات انما تنعكس عنها وتنبعث منها. وكذلك اذا قلنا «المصرية» فانا لا نعني بها شيئاً الا مزيج تينك الثقافتين المجيدتين اللتين كوّنتا لنا على مرّ العصور تراثاً قوياً نستند اليه، ودعامة متينة لجد ينتظرنا إذا نحن استوحيناه، واسترشدنا بوحيهما واتخذناها أساساً نقيم عليه لمستقبلنا ولم نعزف عنهما هأننا الآن.

وإذاً يكون لنا من ثقافتنا التقليدية ناحيتان. الأولى: ثقافة تزوّدنا بها اللغة العربية والدين الاسلامي. وهذه الناحية تكوّن أكثر ما فينا من نزعات الأدب والعلم. والثانية: ثقافة تزوّدنا بها مصر القديمة وهذه بدورها تكوّن متجهنا الفني والمعاشي: ومنهما يتكوّن ذلك التراث الخالد الذي ندعوه ثقافة المصريين التقليدية.

ولن يكون هذا البحث كاملاً الا إذا عرفنا قيمة اتصالنا بهذه الثقافة ومقدار ما نحتاج اليها في تكوين نهضتنا الحديثة تكويناً نضمن معه الثمرة العملية التي ترجى من جيل جديد قادر على الكفاح في الحياة والعمل المنتج الذي يعيننا على اقرار الحالات الاجتماعية على أساس ثابت. وآمل أن أكون قد أفلحت بعض الشيء في تصوير ذلك في سياق هذا الحديث.

لا ريبة في أن التعليم العام هو الاداة التي تمهد لنا سبيل الاتصال بثقافتنا التقليدية. ولقد وضح لنا حتى الآن أن السياسة التي جرى عليها التعليم في بلادنا قد أضعفت من وسائل هذه الأداة إضعافاً ظهر أثره جلياً في كل مرافقنا، بل وفي كل نواحي حياتنا عقلية ومادية.

عمد الاوربيون منذ عهد النهضة الأدبية الحديثة الى الاتصال بثقافتين أوربيتين كانتا العماد الأول والسادة العظمى في تلك النهضة. عمدوا الى ثقافة اليونان وثقافة الرومان حتى لقد غالوا في ذلك باتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في العلم وفي الأدب وفي الفن. فأحيوا بذلك ثقافتين لم يكن لهما مناص من احيائهما لتكونا الوصلة بينهما وبين ماضٍ صبغ ثقافة حوض البحر المتوسط قروناً بصبغة خاصة ولون خاص. ولا تزال جامعات أوربا حتى اليوم تعنى العناية كلها بتلقيح عقول الناشئين بتراث الثقافتين معاً، بل وتجعل درس اللغتين اليونانية واللاتينية أصلاً من أصول التثقيف العالي. فلمَ كان ذلك؟ ولأي من الأسباب الحيوية التي شعر بها الاوربيون في بدء نهضتهم ترجع هذه الظاهرة؟ إنما ترجع كما قلنا الى أن الثقافة التقليدية هي

الأصل الذي يجب أن يظل ثابتاً في بناء الأمم الأدبي والاجتماعي ليكون مَلْتَقىً للآراء والنظريات وضروب الثقافات الدخيلة احتفاظاً بالطابع الأصيل في الأمة، ذلك الطابع الذي هو جزء من كيانها وقطعة من وجودها وليكون في الوقت ذاته المدة في تمثيل ما يتصل بثقافة الأمة من الثقافات المنتحلة غير الأصيلة، وتكييفها تكييفاً يتفق ونزعاتها ومشاعرها وأخيلتها، وعلى الجملة يتفق وثقافتها التقليدية . فهل اتسناق نهضتنا هذه السبيل القويمة ؟ وهل يكفل لنا التعليم الوصول إلى هذه الغايات العليا ؟

كلا . لم يكفل لنا التعليم شيئاً من هذا ، وأقصد به التعليم بناحيته : الناحية التي تمثل وراثتنا عن العرب لغة وديناً، وأعني بها الأزهر، فانه لم يلقح بشيء من الأساليب الحديثة التي يجب أن يلقح بها لتكون له بمثابة الدم الجديد يجري في العروق القديمة . وكذلك لم تعن الناحية التي تمثل ثقافتنا الدخيلة : أي الثقافة الأوربية وأعني بها ناحية التعليم الرسمي ، بأن تكوّن فينا تلك الفطرة التي تصلنا بثقافتنا التقليدية لتكون معملاً حديثاً يتحلل فيه ما يصلنا عن أوربا ويخرج منه مصبوغاً بصبغة مصرية أصيلة . ومثل الأزهر في ذلك كمثل كائن حي هضم ولم يأكل، ومثل التعليم الرسمي كمثل كائن حي أكل ولم يهضم . فناحية جائعة ، وناحية متخومة .

لقد ظلّ اتصال الأزهر بذلك الجزء الذي يمثله من ثقافتنا التقليدية غير مكيف بمقتضيات العصور والحالات التي قامت خلالها، وهو أقل تكيفاً بمقتضيات هذا العصر منه بمقتضيات كل عصر مضى . أما إذا آمنت بأن كلمة الثقافة تدل على تكييف الذهن تكييفاً تاريخياً أول شيء ، ونقصد بالتكييف التاريخي خلق تصورات جديدة من تاريخ الأمم القديمة — فما من شك إذن في أن الأزهر لم يتصل بالثقافة التقليدية من ناحيتها التي تخلق هذا التصور، وإنما اتصل بناحية من الثقافة التقليدية صدّت التصورات عن الانبعاث في سبيل الابتكار، وكذلك ظلّ تعليمنا الرسمي بعيداً عن الاتصال بثقافتنا التقليدية من جميع نواحيها تقريباً . ومن هنا ذلك الصدع المتنائي الذي نلحظه قائماً بين الناحيتين .

ولقد يخيل إليّ أن ما مضينا فيه من بحث هذه الناحية كاف للبيان عما نقصده من ضرورة الاتصال بثقافتنا التقليدية من الوجهة العقلية . أما الوجهة الفنية الجمالية ، وهي

الناحية التي لها الأثر الأكبر في علاج الحالات الاجتماعية التي قامت حقائقنا من الناحية الاقتصادية، فتلك ما سوف أصور كيفية الاتصال بها تصويراً عملياً لأن هذا هو الغرض الأول من بحثنا هذا.

إذا كان ما قلنا صحيحاً من أن التعطل في مصر والتعليم أمران متصلان أشد الاتصال باعتبار ان أحدهما مرض، والثاني علاج، فالواجب يقضي علينا بعد أن أظهرنا أوجه الاتصال أن نبين عن الطريق العملي الذي يجعل العلاج ناجعاً في القضاء على الداء. ولما كانت ثقافتنا التقليدية من الوجهة المعاشية هي الزراعة تحتم علينا بحكم الضرورة أن ننقل درجتي التعليم الأوليين أي الابتدائي والثانوي، وهما الدرجتان التكوينيتان في مراحل التعليم، من المدن الى القرى، وأن نقيمهما على سياسة تختلف اختلافاً تاماً عن السياسة التي يجريان عليها الآن.

***

تجري سياسة التعليم الآن في هاتين المرحلتين على أساس نظري بعيد عن أن يجعل لنا أي اتصال بثقافتنا التقليدية من وجهتيها العقلية والمعاشية. ولا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه السياسة لا تصلنا بثقافة أوربا أيضاً بحيث تجعلنا قادرين على فهم ما ننقل منها فهماً صحيحاً مفيداً. وما قولك في شاب يخرج من التعليم الثانوي جاهلاً بلغته العربية وأصولها وآدابها، غير متصل بآداب دينه غير عارف بشيء من تاريخ بلاده. وبالأحرى من تاريخ العرب أو تاريخ مصر، عاجز عن التعبير تعبيراً صحيحاً بأي من اللغتين الأوربيتين اللتين يتلقاهما في مراحل ذلك التعليم؟ أضف إلى ذلك أنه بجانب هذا يخرج من التعليم الثانوي غير متصل بشيء من ثقافة بلاده التقليدية من الوجهة المعاشية، غير متصل بطبيعة الأرض التي أنشأته أو بطرق استغلالها مشحون الذهن بنظريات وأوهام يتعذر معها أن يعايش الفلاح وأن يدرك شيئاً من سر حياته وتقاليده وخطراته ونفسيته. فكأننا بهذا التعليم نخلق من حوله جواً مصطنعاً وبيئة خفية غريبة عن طبعه. فيصبح بذلك أداة عاطلة في جسم الاجتماع وبؤرة حية للتبرم بالحالات القائمة من حوله في مرباه، بل ومنشأ للقلق ومرتعاً لغرس الأفكار المتطرفة الخاطئة. وعلى الجملة يكون مرتعاً خصباً لغرس بذور الشر

والفساد والعمل على قلب النظم الاجتماعية طمعاً في الحصول على نظم تلائم كفاياته ، وتتفق ومؤهلاته التي أهله التعليم لها . ذلك بأن كل عقلية لها تكوين خاص تنشد من طريقه دائماً البيئة التي ترضيها ، وعجز المتعلم المتعطل عن الانتاج إنما يحمله بمقتضى موجبات عقله الباطن على أن يعمل على تكوين البيئة التي تلائمه متخذاً من النظم الاجتماعية التي نشأ فيها ، مادة يجرب فيها مقدار ما في نفسه من قوة التحليل ، لا من قوة التشييد ، على خلق البيئة التي ترضيه ، والنظم التي توائم عقليته وكفاياته . وما لنا أن نقول لهم من شيء إلا ما يقول آرل بلفور لأمثالهم من أهل بيئته : بأنهم إذا مزقوا القيم القديمة وأرسلوها أباديد ، فقد يتعذر عليهم الاحتفاظ بالقيم الجديدة على وجه الاستمرار .

إن الخطوة الأولى التي ندعو إليها وهي نقل درجتي التعليم الأوليين من المدن إلى القرى خطوة ضرورية في علاج سياسة التعليم ، وهي الخطوة الأساسية في وصل التعليم بثقافة البلاد التقليدية من الوجهة العاشية . أما الخطوة الثانية فتنحصر في اقامة مدارس الحقول ، فتشيد المدرسة على أرض فسيحة تكفي لأن تكون ميداناً يتعلم فيه الطلاب طرق الزراعة العملية على القواعد الحديثة ، ويجب مع هذا أن تلغى الشهادة الابتدائية ويكتفى بشهادة التعليم الثانوي ، وأن يبدأ الطالب حياته التعليمية في هذه المدارس من الثامنة ، ويفرغ من تعليمه الثانوي بعد عشر سنين ، فيخرج من المدرسة وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة . فاذا أراد أن يتخصص بعد ذلك في التعليم العالي فله ذلك ، ولكن بعد أن يكون قد اتصل بثقافة بلاده التقليدية وقامت معلوماته على أساس عملي رشيد ، يكون إليه مرد رزقه إذا تخصص وعجز عن كسب رزقه الحلال

***

هذا هيكل من الرأي يحتاج إلى شرح وجيز . فاننا لا نعني أن تعليم الطلاب في تلك المدارس الزراعية العملية يجب أن لا يصل الطالب بالناحية النظرية ، وإنما نعني أن يكون أساس التعليم فيها الزراعة العملية ، وما يتصل بها من العلوم ، وبجانب ذلك تعليم نظري قائم في أول الأمر على الاتصال بثقافة المصريين التقليدية من الوجهة العقلية ، مع العناية بأمر

اللغات الاوربية عناية كبرى حتى يتيسر لنا الاتصال بثقافة العصر اتصالاً وثيقاً صحيحاً .

أضف الى ذلك أن الطالب ينبغي أن يلقن كل ما يتصل بالانتاج الصناعي من الوجهة الزراعية ، فيخرج ملمّاً بطائفة من الصناعات المتصلة بمحصولات بلاده الزراعية ، عارفاً بسرها ووجهة الانتفاع بها . ولا أغالي إذا قلت إن كثيراً من الذين ينجحون من أهل أوربا في بلادنا أكثر اتصالاً بثقافة بلادنا التقليدية من الوجهة المعيشية من الطالب المتخرج من كلية عليا من كلياتنا ، وفي هذا سر نجاحه العملي ، وسر تعطل شبابنا عن العمل . ولهذا يتحتم علينا أن ندعو الى نشر الصناعات التي تتصل أول شيء بمنتوجاتنا الزراعية ، وأن نصدف عن غيرها لأنها لا تفيدنا شيئاً في حياتنا المعيشية أو تثبت حالاتنا الاجتماعية المرتجة الشاذة ، وبخاصة اذا وعينا أن دور التعليم على اختلاف نواحيها تخرج كل عام عدداً من المتعلمين تعليماً غير عملي زائداً عن حاجة البلاد .

وانما يجب أن يتجه التعليم في الحقول الى غاية أخلاقية محصلها أن يغرس في طبيعة المتعلمين تصور جديد في شرف المهنة التقليدية التي ورثناها عن أسلافنا ، ألا وهي الزراعة . فان التلميذ يجب أن يضع يده في كل عمل يمكن أن يؤديه الفلاح بنفسه ، وأن يتصل عن طريق عضلاته بكل ما تتطلبه مهنة الزراعة من أعمال جسمانية ، وأن لا يرى في ذلك شيئاً خادشاً لمرتبه أومذلاً لنفسه .

***

أورثنا الحكم التركي المشئوم عادة احتقار الفلاّح، لأن كلمة « فلاّح » كانت توازي عند التركي أحط ألفاظ الشتم وأشنع كلمات السباب . ولطول الأمد الذي اعتدنا أن نسمع فيه هذه الكلمة مؤدية ذلك المعنى ، غرس في طبيعة المصريين أنفسهم ، بطريق التكرار وموحيات العقل الباطن ، ميل الى احتقار الفلاح واحتقار مهنته ، والاعتقاد بأن العمل اليدوي في الزراعة انما هو عقاب نفسي مرهق للنفس خادش للعزة . وأنت ترى أن الاعراب في مصر قد انتحلوا هذه العادة . فانك اذا سألت أعرابياً أفلاح أنت ؟ أجابك على الفور « كلاّ ؛ أنا أعرابي » ولكن بنبرات تدل على انه يعتبر الكلمة اعتداء على مكانته السامية ،

وقد يكون من خشاش الناس ومن دؤبان العرب ، مهلهل الثياب قذر المنظر والمخبر .

ولم يقف الأمر عند هـذا الحد ، بل إنك تجد أن الفلاح إذا قضى خدمته العسكرية وتسرّح من الجيش ، أنف أن يعود الى الحقل ، أو أن يحمل المحراث، أو يقود الماشية ، فاذا عجز عن أن يكون شرطيًّا ، قضى وقته في القرية عاطلا أو محترفاً حرفة أخرى غير الزراعة، فتجـده نجاراً أو حداداً لا يملك قوت يومه . وقد يتطرّف بعضهم في احتقار مهنة آبائه فيغشى المجالس عازفاً على قيثارة ، لانه كان في موسيقى الجيش ، مستجدياً بها ، كأنما هو يعتقد أنّ الاستجداء بالعزف على قيثارة أشرف من العمل في الحقول . ولاشك في أن هذه الظاهرة قد أورثتنا نقصاً نفسيًّا يمكن تعليـله علميًّا ، ولـكن ليس هنا مكان ايضاحه . ولـكن ذلك لا يحول دون القول بأن هـذه الظاهرة من السهل علاجها بأن نعوّد أولادنا الاعتقاد بشرف المهنة التي تربي جـوعهم ، وعليهـا قامت مدنيّهم منذ أقدم العصور ، على أن نفهمهم أولاً أن لهم مدنية وماضياً جديرين بالاحترام .

***

والمحصل اننا لن نخلص من نتائج التعطل إلاّ بالالتجاء الى اقامة سياسة التعليم على قواعد جديدة أساسها الأول الرجوع الى ثقافتنا التقليـدية ، فنخرج رجالاً مستقلين بأنفسهم ، يعرفون كيف يرجعون الى حضن أمهم الأولى « مصر » اذا أرادوا الحياة سعيدة هنيئة . ومن أجل أن نصل الى هـذه النتيجة ينبغي لنا أن ننتحي أسلوباً معيناً ينحصر في تنفيذ الآتي :

أولاً — جعل مدة التعليم الابتدائي والثانوي عشر سنوات يمتزج فيها التعليم النظري بالتعليم العملي الزراعي ، وأن يغرس في الطلاب روح الاعتقاد بشرف مهنـة آبائهم التقليـدية ، وأن يقترن هذا التعليم بتلقين الصناعات الزراعية وبخاصة ما يتعلق بالزراعة العملية منها .

ثانياً — درس تاريخ العرب والمصريين درساً تحليليًّا وافياً .

ثالثاً — درس مبادىء العلوم والآداب العامة وهي الجهـة التي تتفتح بها عقولنا من الثقافة الحديثة

رابعاً — درس مبادىء الأدب ومبادىء الدين العليا .

خامساً — درس عقائد المصريين القدماء وطرق معيشتهم وآثارهم وأعيادهم ، وعلى الجملة كل ما يتعلق بحياة الجماعة في مصر القديمة .

وهنالك بجانب هذه أشياء يجب أن يُهَيِّأ الناشىء بمعرفتها ، ولكنها جميعاً تفاريع على هذه الأصول فلا محل لذكرها .

فإذا تخرَّج الطالب وله من العمر ثماني عشرة سنة أو عشرين ، أصبح على الحكومة له واجباً تؤديه ، هو أن تمنحه قطعة من أرضها المملوكة يؤدي لها فيها ثمناً تأجيلاً على أقساط طويلة ، وأن تمده برأس مال اذا احتاج إليه يسدّد مع ثمن الارض ليكون عونه على اعداد عدّته لحياة العمل والكفاح .

***

هذا طريق الخلاص ، وهو وحده طريق القضاء على التعطُّل ، وإخراج جيل جديد منشّأ على طرق عملية ، جيل مكافح عامل خالٍ من آثار الأمراض الاجتماعية ، جيل يشعر بأنه مستقل في الحياة ، وأن له عزّة الرجولة وشرف الانتساب إلى مصر الخالدة ، جيل هو جيل الاستقلال الحقيقي والعمل لمجد النيل .